برناردو كوسينسكي

مكتبة

# مؤتمر المختفين

ترجمة: د. محمد مصطفى

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

# مؤتمر المختفين

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكاتب: **برناردو كوسينسكي**
عنوان الكتاب: **مؤتمر المختفين**
ترجمة: **د. محمد مصطفى**

العنوان باللغة الأصلية: O congresso dos desaparecidos
الكاتب: Bernardo Kucinski

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-44-5
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024
1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
© Copyright @ Bernardo Kucinski 2023

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
takweenkw
takween.publishing@gmail.com
TakweenPH
takween_publishing
www.takweenkw.com

برناردو كوسينسكي

مكتبة
t.me/soramnqraa

# مؤتمر المختفين

رواية

ترجمة عن البرتغالية

د. محمد مصطفى

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

# مقدمة المترجم

# أشباح الدكتاتورية

مكتبة
t.me/soramnqraa

يمنح الأدب صوتًا للمقهورين، كما يمنح المختفين قسريًّا نوعًا من العدالة المتخيلة. في الأدب قصَّاص قد لا يتيحه الواقع، فدور الأديب هو أن يميط اللثام عن الحقيقة، وأن يُجري تشريحًا للبيانات التي تم تجميعها من خلال بحث معمق، ومن شهادات الشهود، ومن الملفات السرية، أو من خلال الربط بين شذرات من معلومات من هنا ومن هناك. ذلك ما قام به برناردو كوسينسكي في روايته الجديدة «مؤتمر المختفين» التي يعيد من خلالها من اختفوا قسريًّا إبَّان حقبة الدكتاتورية العسكرية في البرازيل إلى واجهة الأحداث.

كتب كوسينسكي هذه الرواية إبَّان وباء كورونا (كوفيد -١٩) بين ديسمبر ٢٠١٩ وديسمبر ٢٠٢٢. تستعيد الرواية صوت قصائد الناشط السياسي ألكس بولاري[١] الذي حكم عليه بالسجن المؤبد عام ١٩٧٠ لمشاركته في اختطاف السفير الألماني لدى البرازيل، وإن

(١) ألكس بولاري دي ألفيرغا (١٩٥١) أمضى سنوات طوال سجينًا سياسيًّا، إبَّان الحكم العسكري في البرازيل. هو حاليًّا أب روحي لمجتمع المابيا في الأمازون.

تم العفو عنه بعد ذلك بعشرة أعوام، حيث مضى ليعيش حياة العزلة في غابات الأمازون: «أُصبنا جميعًا بالحيرة ونحن ننتظر انعقاد مؤتمر لمن تشوهت أرواحهم وأجسادهم» (جرد الجراح). تنطلق الرواية بالتقاء اثنين من الرفاق ينتميان إلى منظمة سرية سحقها قمع الدكتاتورية. يجلس الاثنان على مقعد في براسا دا ريبوبليكا (ساحة الجمهورية) التي كانت ذات يوم من أجمل الأماكن في ساو باولو، لكنها تحولت الآن إلى مكان يُرثى له. يجلس الاثنان مقابل كايتانو دي كامبوس، وهي مدرسة حكومية عريقة تحولت الآن إلى مبنى إداري.

لا يكاد رودريغيز يتعرف على جابا الذي تشوه وجهه بفعل العنف والتعذيب. يتذكر الاثنان تلك الليلة التي «سقطا» فيها أي تم إلقاء القبض فيها عليهما منذ أربعين عامًا: «كانت تلك أفضل سنوات عُمري وأسوأها. كنا صغارًا ومتمردين، سعينا إلى أن نُضفي على الحياة معنى بُطوليًّا. رأينا الثورة هي المصير، كان كل شيء مُمكنًا: هزيمة جيش وتغيير العالم... يا للسذاجة! يا له من وهم! يا له من وهم كبير! ثم تذوقنا طعم الهزيمة، ومع ذلك ظللنا نُقاوم كما لو أننا نستفز ملاك الموت. سألت نفسي للمرة الألف: كيف كان من الممكن أن نصدق ذلك؟»

دار في خلد جابا أن يجمع الأشباح ويُصدر بيانًا. ظل رودريغيز صامتًا لوهلة ثم صاح: «مؤتمر للمختفين! يا لها من فكرة عظيمة! مؤتمر قومي للمختفين السياسيين! شبح الموتى يطارد الأحياء!»

يدلف السرد هنا إلى الفانوس السحري: كيف يمكن إعلام من ليس لديهم شبكات تواصل اجتماعي؟ لا بد أن يتم إعلامهم وجهًا لوجه، ولذا لا بد من تحديد المكان والزمان. سيتم الانعقاد ليلة الأول من حزيران/ مايو لا في المسرح البلدي البرجوازي، ولكن في كاتدرائية المدينة[١] حيث عقد القداس على روح ألكساندر فانوكي ليمي[٢] وفلاديمير هرتزوغ[٣].

تطفو على سطح الذاكرة وجوه الرفاق: «مر وقت طويل منذ التقيت رفاقي، فماذا عنك أنت؟» يجيب رودريغيز بأنه اعتاد أن يرى جوناس من فترة إلى أخرى، لكنه لم يعد يراه.

يشتمل جدول أعمال المؤتمر على تذكر أولئك المنسيين الذين سقطوا في مواجهة النظام بفعل قانون العفو العام، وبفعل ضغوط العسكريين والمدنيين لمنع التحقيق في جرائم التعذيب. فكر أعضاء المؤتمر حتى في استدعاء أماريلدو[٤] الذي اختفى أخيرًا في عملية للشرطة في روسينيا[٥] حيث انتهجت الشرطة نفس سيناريو

---

(١) كاتدرائية المدينة أو متروبوليتان كاتدرال وتعرف كذلك باسم سي كاتدرال هي كاتدرائية الروم الكاثوليك الأشهر في ساو باولو.

(٢) ألكساندر فانوكي ليمي (١٩٥٠-١٩٧٣) كان طالبًا يدرس في السنة الرابعة بجامعة ساو باولو عندما ألقي القبض عليه وقتله في ١٧ مارس ١٩٧٣.

(٣) فلاديمير هرتزوغ (١٩٣٧-١٩٧٥) صحفي برازيلي وأستاذ جامعي، كان عضوًا بالحزب الشيوعي البرازيلي تم تعذيبه وقتله على يد الدكتاتورية العسكرية في البرازيل.

(٤) أماريلدو دياس دي سوزا (١٩٦٥-٢٠١٣) هو عامل بناء من ريو دي جانيرو، اختفى منذ ١٤ يوليو ٢٠١٣ بعد أن احتجزته الشرطة أمام باب منزله في فافيلا روسينيا. أصبح اختفاؤه رمزًا لإساءة استخدام السلطة.

(٥) روسينيا هي أكبر فافيلا في البرازيل تقع في المنطقة الجنوبية من ريو دي جانيرو.

الاختفاء القسري في عهد الدكتاتورية، وذلك دليل دامغ على أنه لم يتبدل الكثير منذ ذلك الحين. ولعل ذلك يرجع إلى سيادة ثقافة الإفلات من العقاب.

في اليوم المحدد لانعقاد المؤتمر، يظهر المتمردون القدامى الواحد تلو الآخر، حيث يُدلي كل منهم بشهادته. تعود الأشباح إلى الحياة، وعندما نقرأ الرواية نتعرف على بعض من هؤلاء الأشباح رغم أن الرواية تحجب ألقابهم عنا؛ ديفيد هو ديفيد كابيسترانو[١]، وكان مُحررًا صحفيًّا وزعيمًا شيوعيًّا اختفى عام ١٩٧٤. كان أوزفالداو[٢] أول من يصل، وكان زعيم حرب عصابات ينتمي إلى الحزب الشيوعي البرازيلي تم اغتياله عام ١٩٧٤، وظل مُعلقًا بطائرة هيليكوبتر على مرأى من سكان أراغوايا. أما أونفري فهو بينتو[٣]، زعيم حركة الطليعة الشعبية الثورية الذي اختفى عام ١٩٧٤، وجوناس هو فرغيليو غوميش دا سيلفا[٤] الذي اختفى عام ١٩٦٩،

---

(١) ديفيد كابيسترانو (١٩١٣-١٩٧٤) سياسي وقائد حرب عصابات كان ينتمي إلى الحزب الشيوعي البرازيلي وانضوى تحت لواء مقاومة الدكتاتورية العسكرية. اختفى وهو في طريقه إلى ساو باولو.

(٢) أوزفالداو أو أوزفالدو أورلاندو داكوستا (١٩٣٨-١٩٧٤) كان أحد أبرز قادة حرب العصابات في شمال البرازيل في السبعينيات من القرن الماضي، قُتل على يد عميل للجيش وتُرك جثمانه في الغابات.

(٣) أنوفري بينتو (١٩٣٧-١٩٧٤) كان ناشطًا في حرب العصابات. ألقيَ القبض عليه عام ١٩٦٩، قُتل بعد كمين مسلح.

(٤) فرغيليو غوميش دا سيلفا (١٩٣٣-١٩٦٩) كان عاملاً انتمى إلى حرب العصابات إبان الصراع المسلح ضد الدكتاتورية. قاد عملية اختطاف السفير الأمريكي في البرازيل عام ١٩٦٩.

وكان ينتمي إلى حركة التحرير الوطني[1]. يروي العديد من هؤلاء سبب انضمامهم إلى الكفاح المسلح: «استغرق الأمر مني بعضًا من الوقت لكي أفهم لماذا انضوى تحت لواء الكفاح المسلح، لا سيما أنه لم يكد يعرف كيف يحمل بندقية. عندما طلبت منه أن يفسر لي معنى الفوضوية، ألقى عليَّ محاضرة عن تمرد العمال في مناجم الفحم وفي مصانع الغزل والنسيج. قال إن الفوضوية ألهبت خيال العمال، إلى درجة أنهم أسسوا مئات الصحف والمجلات ومنظمات العمال حول العالم حتى جاءت اللينينية فيما بعد لتخنق كل ذلك. ذات مرة فسر لي لماذا انضم إلى الكفاح المسلح قائلًا إن أحد شعارات الفوضوية تتمثل في المضي إلى ما هو أبعد من الكلمات، أي إلى الفعل».

اليوم نشبه كلنا بعضنا بعضًا، فنحن نعيش في نفس الظروف، في نفس المأزق، كل ما حدث هو أننا دلفنا إلى جحيم العدم، نذرع اللامكان، ولعل ذلك المؤتمر يجعلنا شركاء في رحلة جديدة، رحلة تاريخية، فوحدهم الذين عاشوا ما حدث في ريعان شبابهم يمكنهم أن يُدركوا حجم مأساة اليوم، إنها تلك الفاشية التي، فضلًا على تدمير الطبيعة، قد دمرت نسيج المجتمع البرازيلي نفسه.

شملت قائمة المؤتمر الأول للمختفين بسبب آرائهم السياسية رسميًّا ٢٤٠ شخصًا، فقد دُعيَ إلى المؤتمر من تم التمكن من التحقق

---

(١) حركة التحرير الوطني هي مجموعة حرب عصابات ماركسية-لينينية قاومت الدكتاتورية العسكرية في البرازيل. تأسست الجبهة على يد كارلوس ماريجيلا عام ١٩٦٧ بعد انشقاق حدث في الحزب الشيوعي البرازيلي.

من شهادات وفاتهم فقط. كان أقدم المختفين نيغو فوبا[1] وبيدرو فازنديرو[2]، وقد اختفى الاثنان في ٧ سبتمبر ١٩٦٤ في إحدى ثكنات الجيش في جواو بيسوا[3]. إبان تلك الفترة لم يكن هناك مشروع تضطلع به الدولة لإخفاء المعارضين، فقد تبلور ذلك المشروع في السبعينيات فصاعدًا.

كان أكبر عدد من المختفين ينيف على ٥٠ شخصًا في ريعان الشباب حيث داهمتهم قوات الجيش وهم يتأهبون لشن حرب عصابات في أدغال الأمازون، وتم تصفيتهم جميعًا بعد أسرهم. لم يتسنَ التعرف سوى على جثامين ٢٩ من هؤلاء. كيف للحزب الشيوعي البرازيلي بكل تلك الخبرة في الصراع المسلح أن يشن مثل تلك العملية الانتحارية الكارثية؟ لقد كان الجيش يعلم بتحركات أولئك كلهم، كما أن القادة كانوا على علم بأن الجيش يعلم كل شيء عنهم، لأنه ما إن وصلت طلائع هؤلاء المقاتلين إلى آراغوايا حتى نُشر ذلك على الصفحة الأولى من صحيفة فوليا دي ساو باولو[4].

---

(١) نيغو فوبا واسمه الحقيقي جواو ألفريدو دياس (١٩٣٢-١٩٦٤) كان فلاحًا وانضم إلى الحزب الشيوعي البرازيلي. اختفى دون أن يعثر على جثمانه.

(٢) بيدرو فازنديرو هو بيدرو إناسيو دي أراأوجو (١٩٠٩-١٩٦٤) كان ناشطًا في الحزب الشيوعي أعقاب الانقلاب العسكري عام ١٩٦٤.

(٣) جواو بيسوا هو ميناء يقع في شمال شرق البرازيل. والميناء هو عاصمة ولاية بارايبا. يصل عدد سكانه إلى حوالي مليون نسمة (تعداد ٢٠٢٠).

(٤) فوليا دي ساو باولو صحيفة برازيلية شهيرة تأسست عام ١٩٢١ على يد مجموعة من الصحفيين بقيادة أوليفال كوستا وبيدرو كونيا. يتجاوز توزيعها اليومي ربع مليون نسخة.

لقد كشف تقرير الصحيفة الذي تم نشره على عددين متتابعين عن أسماء وصور الكثير من هؤلاء. أشار التقرير إلى كل شيء عدا مكان انتشار أفراد حرب العصابات، لكنه كان مُرفقًا بخريطة للبرازيل موضحًا عليها مانو غروسو، وغوايش، وبرنامبوكو.

قرر المجتمعون الدعوة إلى عقد مؤتمر ثانٍ بعد عامين. في نهاية المطاف شرعت الأشباح في الحراك وتزايد أعداد المشاركين وهم يتجهون إلى العاصمة برازيليا. سار المشاركون بتؤدة ليفسحوا المجال لأكبر عدد في المشاركة، وسرعان ما ظهر ثلاثة من الصبية المختفين في بلفورد روكسو[١] وهم يمسكون بعضهم بأيادي بعض، وكان هناك كذلك مجموعة من تسعة من المختفين من بروماديتو[٢].

في باحة ساحة الوزارات التأم شمل المختفين من شمال وشمال شرق البرازيل، كما جاء أفراد الكابوكلو[٣] من بارا ومن مارانياو، وهم أولئك الذين اغتيلوا على يد المسلحين بأوامر من مُلاك الأراضي والمناجم. لقد تم اغتيال بضعة آلاف من السرتانيجوس[٤]

---

(١) بلفورد روكسو هي مدينة تتبع ولاية ريو دي جانيرو، يتجاوز سكانها نصف مليون نسمة (تعداد ٢٠٢٠).

(٢) بروماديتو هي بلدة تتبع ولاية ميناش غيرايش عدد سكانها حوالي ٤٠,٠٠٠ نسمة (تعداد ٢٠٢٠).

(٣) إلكابوكلو كلمة برتغالية تشير إلى شخص ينتمي إلى عرق مختلط عادة نتيجة تزاوج بين الأوروبيين والسكان الأصليين.

(٤) إلسرتانيجوس مصطلح يشير إلى سكان الأرياف غير الحضرية التي لا تطل على الساحل البرازيلي.

في كانودوس[1]، فضلاً عن قادة للفلاحين من الكاباناغم[2] إبَّان الثورة الشعبية.

هكذا نرى أن الموتى لا يصمتون أبدًا، حتى من مات منهم منذ ردح طويل من الزمن. إنهم أشبه بسيبي[3] الذي أبدًا لا يموت.

تُكرس الأديان نفسها للموتى، ففي مصر يتم التحنيط للعودة إلى نفس الجسد، كما أن شكسبير قد منح صوتًا للملك الميت، والد هاملت، ليصيح صارخًا في وجه الخيانة. يعيد كُتاب السيرة الذاتية إحياء الموتى، كما أن الأدب يمنحهم صوتًا ليتكلموا، أو كما قال جابا: «أُبصر الحاضر، لكن الماضي عالق بداخلي».

---

(١) حرب كانودوس (١٨٩٥-١٨٩٨) هي حرب دارت رحاها بين الجمهورية البرازيلية الأولى وسكان منطقة كانودوس في ولاية باهيا.

(٢) إلكاباناغم هم سكان الأرياف غير الحضرية.

(٣) سيبي تياراجو (حولي ١٧٢٣-١٧٥٦) مقاتل برازيلي ينتمي إلى عرقية الغواراني. يعد قديسًا وشهيدًا في الثقافة الشعبية البرازيلية.

# استهلال

مكتبة
t.me/soramnqraa

اشتهر برناردو كوسينسكي بفضل روايته «ك: تقرير بحث» التي صدرت عام ٢٠١١. وتدور أعماله حول «الثقب الأسود» للذاكرة إبَّان حقبة الدكتاتورية في البرازيل (١٩٦٤-١٩٨٥). ولذا فإن إنتاجه الأدبي يعد مشروعًا أدبيًّا متماسكًا يواجه سياسات النسيان واغتيال الذاكرة، وهي سياسات تجد لها أرضًا خصبة في البرازيل.

يعد عمله الأخير الذي بين يديك الآن مُربكًا من نواحٍ عدة. فالرواية لا تضم، بادئ ذي بدء، سوى ضحايا للاختفاء نتيجة ممارسة إرهاب الدولة؛ هذه الممارسة التي استخدمت على نطاق واسع في ديكتاتوريات أمريكا اللاتينية في القرن العشرين. إلا أن كوسينسكي يقدم ذلك في سياق الاستعمار أي منذ تأسست البرازيل. إنها سياسة تمت ممارستها على يد من هم في السلطة ضد المختفين ممن يعتقد النظام أن وجودهم غير مرغوب فيه، ولا يزال يتم ممارسة هذه السياسة إلى الآن.

وهكذا، جنبًا إلى جنب مع المختفين إبان حقبة الدكتاتورية، نجد أن من نظموا مؤتمر المختفين يضمون أيضًا زومبي وأنطونيو كونسيليرو وأماريلدو ومقاتلين من كاباناغم، ومن اتحاد الفلاحين ومن ضحايا العنف والعنصرية.

يعيد كوسينسكي في هذه الرواية-المانيفستو بناء تاريخ البلاد من وجهة نظر ممارسات سياسات الهيمنة والتصفية الجسدية أو ما يعرف بالنيكروبوليتيكس necropolitics. من الواضح أن الرواية ترمي إلى دفعنا إلى أن نعيد شحذ ذاكرة مقاومة الفاشية، فلا ريب أنها قد استلهمت أفكارها من رواية خوان رولفو المعروفة «بيدرو بارامو»، حيث تقدم إلينا نوعًا من التأمل النقدي الذاتي. ويمزج كوسينسكي، كما هو معتاد، في عمله هذا بين الشخصيات التاريخية والراهنة بما يسمح لنا بتخيل وإعادة رسم صورة واضحة لحقبة الدكتاتورية في البرازيل. بهذا المعنى يجب النظر إلى سياسة ممارسة الاختفاء على أنها خلاصة لفاشية أمريكا اللاتينية ولا تدع «فينومينولوجيا الاختفاء السياسي» التي جسدها كوسينسكي لنا مجالًا للشك في هذا الأمر.

**مارسيو سيليكمان سيلفا**

**نحن جميعًا في حيرة من أمرنا**
**في انتظار مؤتمر**
**أولئك المشوهين جسدًا وروحًا.**
**أليكس بولاري «جرد الجراح»**

**هم في مكان ما/**
**سحابة أو قبر**
**هم في مكان ما/**
**أنا على يقين**
**هناك في جنوب الروح.**

ماريو بينيديتي[1]

(١) ماريو بينيديتي (١٩٢٠-٢٠٠٩) روائي وشاعر أوراغوائي ينتمي إلى جيل الـ٤٥. نشر ما ينيف على ٨٠ كتابًا تُرجمت إلى أكثر من ٢٠ لغة. يُعد أحد أهم كتاب أمريكا اللاتينية في النصف الأخير من القرن العشرين.

# (١)

مكتبة
t.me/soramnqraa

تجولت، شارد الذهن، عبر الحدود القصية، وبغتة شعرت كما لو أن أياديَ خفية قوية تجرني بإصرار صوب براسا دا ريبوبليكا (ساحة الجمهورية) التي لم تطأها قدماي منذ أن سقطنا أنا ورودريغيز هناك، منذ ما ينيف على أربعين عامًا. وجدت المكان يعج بالمشردين والمتسولين والأطفال الذين يرتدون أسمالًا بالية. بدا وسط المدينة العتيق، المليء بالخيام المصنوعة من القماش الرمادي، وكأنه مُخيم للاجئين.

كانت براسا دا ريبوبليكا مختلفة تمامًا عن الصورة التي احتفظت بها في ذاكرتي: تلك الأشجار الشامخة، أولئك الأطفال الذين يغادرون منتشين فصولهم الدراسية. تحولت المدرسة إلى مبنى إداري بلا روح. ذكرتني الأشجار المقطوعة والعُشب المتقصف برجل عجوز يئس من الاعتناء بنفسه. احتلت الشخصيات المتوترة منصة الفرقة الموسيقية. كان الجو حارًّا ورطبًا في وقت متأخر من بعد الظهيرة، وكان الصبية يسبحون في مياه البركة الموحلة.

لم أعثر على المقاعد التي كنا ذات يوم نلتقي عندها. شخصت ببصري فرأيت مقعدًا عند عمود على حافة الساحة فجلست عليه. تدبرت الأمر، لكن الفكر، مثل رحلة الطير، لا يمكن التنبؤ به. تأملت فيما رأيته فورًا، في أولئك المعوزين والمهمشين. ثم فكرت في الزمن الذي مضى وفي عناد الذاكرة. أُبصر الحاضر، لكن الماضي عالق بداخلي. كانت تلك أفضل سنوات عُمري وأسوأها. كنا صغارًا ومتمردين، سعينا إلى أن نُضفي على الحياة معنى بُطوليًّا. رأينا الثورة هي المصير، كان كل شيء مُمكنًا: هزيمة جيش وتغيير العالم... يا للسذاجة! يا له من وهم! يا له من وهم كبير! ثم تذوقنا طعم الهزيمة، ومع ذلك ظللنا نُقاوم كما لو أننا نستفز ملاك الموت. سألت نفسي للمرة الألف: كيف كان من الممكن أن نصدق ذلك؟ وما جدوى تضحياتنا إن وصلنا إلى ما نحن فيه الآن. ما زال الناس يعانون من الفقر والتهميش، بل وحتى الطبيعة مسها جنون الكوارث والأوبئة التي يبدو أنها تُنذر بنهاية الزمان.

استغرق الأمر مني بعض الوقت، وأنا مُنغمس في التفكير، لأدرك أن شخصًا ما قد جلس إلى جواري. التفت كي أتفحصه، فوجدت أن وجهه كان مُشوهًا. ومع ذلك، فقد كان هناك شيء ما في ملامحه مألوفًا لي. تمعنت فيه باهتمام. كانت ذقنه بارزة، وفكيه مشوهين. أعرف هذا الفك! كان هو كذلك يحدق إلى وجهي، وفجأة مد يده وقال:

- جابا! تعرفت عليه وقلت صائحًا:

- رودريغيز! وتعانقنا.

سرعان ما شرعنا نتحدث على عجل وفي نفس الوقت. شعر رودريغيز بنفس الدافع لزيارة الساحة مرة أخرى، وفي نفس اللحظة. وجلس إلى جواري، على نفس المقعد. قلت: يا لها من مصادفة. علق قائلًا: إنها ليست مصادفة، فالمصادفة أمر عشوائي ولا تعني شيئًا. لعل شيئًا مُهمًّا لكلينا هو الذي دفعنا لنلتقي. سألت: ماذا يمكن أن يكون. أجاب: ربما يكون هناك نوع من التزامن بين الرغبات، أي إن لدينا نفس الحاجة في نفس الوقت.

رأى رودريغيز، وكان يهتم بالأساطير، أن آلهة الحظ هي التي جمعتنا هناك لُتضفي نوعًا من المعنى على وجودنا العقيم عديم الفائدة. ثم أضاف: لربما حدث ذلك حتى نتمكن من التمرد مرة أخرى. اعترفت له آنئذ بأنني لم أعد أستطيع تحمل الملل والوحدة. عندها قال: حسنًا، لقد انغمست أنا في الفلسفة. لم يكن لديَّ الوقت الكافي من قبل، أما الآن، ومن دون الحاجة إلى التمرد ومن دون التفكير في متاعب الحياة، ومن دون الحاجة إلى أي مكان، فقد أضحى لديَّ متسع من الوقت. يبدو الأمر كما لو أن الوقت ليس لديه مكان يذهب إليه هو أيضًا.

طفقنا نتفحص بعضنا بعضًا ونحن صامتون. مرت دقيقة طويلة حتى صاح رودريغيز: أنت لم تتغير على الإطلاق! تبدو على ما يُرام! لم أستطِع أن أقول نفس الشيء. سألت عمَّا حدث له. قال، وقد خفض صوته: لقد تعرضت للضرب المبرح، ولقد صرخت

لكنك لم تسمع. قلت لقد سمعت ذلك، ولكن لم يكن هناك وقت فلقد ضربوني أنا كذلك على الفور.

لقد شعرت بالندم، فلم أكن مُستعدًّا. قال رودريغيز: لم يكن أحد منا مستعدًّا، كنا خائفين من الهراوي. نعم، هذا صحيح، لقد كنا مرعوبين من الهراوي، لكن لم يفكر أحد في الموت. قلت: أخال أنني أحيانًا أخشى موت رفيق لي. قال رودريغيز: أنا لست كذلك، ولا أعتقد أن أحدًا يفكر في موته.

لقد سقطت هناك، بالقرب من المكان الذي كنا فيه معًا. كان في إمكانهم أن يسمحوا لوالدي بأن يدفنني على نحو لائق، لكنهم قرروا إخفائي. لم أدرِ حتى إلى أين أخذوني. سألت رودريغيز: وأنت، إلى أين أخذوك؟ قال: لم أتمكن من أن أحصي عدد المرات التي دفنوني فيها، لكنهم ألقوا بي أخيرًا في خندق، واختلطت بالآخرين، حتى أصبح من المستحيل التعرف عليَّ. قلت: لقد انتهى عمل لجنة الحقيقة. قال رودريغيز: لطالما احتجت أسر المختفين. أجبته: أما زالوا يحتجُّون؟ لقد أنهكهم الاحتجاج، وقد مر وقت طويل منذ ذلك.

وافق رودريغيز على ما أقول. خطرت لي في تلك اللحظة خاطرة تركت رودريغيز مدهوشًا. ماذا لو قمنا نحن أنفسنا بالاحتجاج. ماذا لو نجتمع معًا ونصدر بيانًا. سيكون ذلك أمرًا رائعًا! عبس رودريغيز وكأنه لم يفهم، ولم ينبس ببنت شفة. ظل صامتًا، وبدا شاردًا لفترة طويلة. فجأة هبَّ واقفًا وحدق إليَّ مليًّا

وصاح متعجبًا: مؤتمر المختفين! يالها من فكرة جبارة! مؤتمر وطني للمختفين سياسيًّا! الأشباح تُطارد الأحياء! كيف لم يفكر أحد في هذا من قبل؟!

قلت له: إن اختفينا وتحدث الآخرون نيابة عنا، فلربما يكذب البعض، ولربما يعتقد البعض الآخر أنهم يعرفون الحقيقة، لكننا نحن وحدنا من نعرف مدى رعب تجربة الاختفاء. إن صوتنا هو الذي يجب أن يُسمع، أننجح في أن نستقطب الناس؟ وافق رودريغيز على ذلك وقال: إن الشعب الذي ينسى مفقوديه محكوم عليه بمستقبل به المزيد من المختفين. قلت إن ذلك لم يحدث في بلاد أخرى، فكيف تفسر هذا النسيان؟ أجاب: لقد تفشت الفاشية، إنها انتكاسة هائلة. من أين جاء الفاشيون في رأيك؟ لم يأتوا من العدم! هم أيضًا أشباح الماضي؛ إنهم مالكو العبيد الذين تجسدوا مرة أخرى في صورة رجال أعمال، وملاك الغابات الذين تجسدوا مرة أخرى في صورة مديري بنوك، إنهم أولئك الطغاة المتعطشون للدماء الذين تجسدوا مرة أخرى في صورة ديماجوجيين سياسيين. إننا نقرأ في الصحف أنه يتعين علينا أن نتصدى لكل هؤلاء!

بينما كنت أتحدث، ازداد تحمس رودريغيز، وسُرعان ما بدأ يتخيل كيفية استدعاء المختفين إذا لم يكن في الإمكان الوصول إليهم عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي. قلت إن ذلك يجب أن يكون عن طريق الكلام الشفهي، حيث يخبر شخص ما شخصًا آخر، وهذا بدوره يخبر شخصًا آخر، وهكذا دواليك حتى تنتشر

الدعوة. قال رودريغيز: في هذه الحالة، علينا أن نحدد اليوم والوقت والمكان على الفور. هل تعتقد أن يومًا واحدًا يكفي لذلك؟ أعتقد أنه من الأفضل أن يكون ذلك خلال يومين أو ربما ثلاثة فهناك الكثير لنتحدث عنه. اقترحت أن يكون ذلك إبَّان أسبوع عيد العمال، فذلك تاريخ لن ينساه أحد، وسيكون هناك أربعة أشهر كافية للتنظيم. والمكان؟ فكرت في المكان... المكان... أخيرًا اقترحت المسرح البلدي. قلت إن فيه أجهزة صوتية جيدة، كما أن قاعاته متاحة من الاثنين إلى الأربعاء. اعترض رودريغيز قائلًا: للأماكن رمزيتها، والمسرح البلدي يحمل صبغة برجوازية، فهو من نسج خيال بارونات القهوة. لماذا لا نختار كاتدرائية متروبوليتان فهي كذلك تتمتع بأجهزة صوتية جيدة؟ الكاتدرائيات تسمو على باقي الأماكن، كما أنها تتسم بالمهابة، وبمجرد دخولك إليها تشعر بذلك الحضور الرائع للمقدس.

سألت مستغربًا:

- إذن أنت الذي كنت ماديًّا، أصبحت الآن متدينًا؟

- لا، لست أدري، لكن للمقدس مكانة في النفس البشرية، ولا يمكن تفسير كل شيء على نحو مادي. هناك الخيال، وسحر الإبداع، وهناك باخ[1]، ومايكل أنجلو[2] وهناك

---

(١) يوهان سباستيان باخ (١٦٨٥-١٧٥٠) مؤلف موسيقي ألماني شهير.

(٢) مايكل أنجلو (١٤٧٥-١٥٦٤) نحات ورسام ومعماري وشاعر إيطالي ينتمي إلى عصر النهضة.

شيء فينا يتجاوز وجودنا الجسدي، ويتجاوز سُنن المجتمع. لو لم يكن الأمر كذلك، لما كنا هنا، أليس كذلك؟ حيرني ما قاله رودريغيز، ولم أدرِ كيف أرد. تمتم هو مضيفًا:

- علاوة على ذلك، فقد تم تأبين هرتزوغ في الكاتدرائية، وذلك أمر يزخر بالكثير من المعاني بالنسبة إلينا. قلت: فليكن في الكاتدرائية. وهكذا تم الاتفاق. سيتم افتتاح المؤتمر الوطني الأول للمختفين سياسيًّا ليلة الأول من مايو في كاتدرائية متروبوليتان.

تبادرت إلى ذهني وجوه الرفاق الذين أشتاق إلى رؤيتهم. قلت: لم أقابل أحدًا من رفاقنا منذ فترة، وأنت؟ أجاب، ولا أنا، رأيت ذات مرة جوناس وهو يتفحص ما تبقى من عظام، لكني لم أرَه منذ ذلك. قلت له إن العظام لم تعد موجودة، فلقد تم نقلها إلى مركز الأنثروبولوجيا الجنائية وعلم الآثار الذي أنشأته الجامعة. كان هناك الكثير من المواد، أكثر من ألف صندوق. قال رودريغيز: لم أكن أعرف، وسخر من علم الآثار الشرعي... لقد أصبحنا حفريات من عصور غابرة.

أمضينا الليل نجتر الذكريات. يتمتع رودريغيز بذاكرة استثنائية ويتذكر كل الأحداث التي نسيتها. كان هو الأكبر سنًّا بيننا، كما كان الأكثر ثقافة إلى حد بعيد. كنا لا نزال طُلابًا جُددًا، وكان هو قد بدأ الدراسة لدرجة الدكتوراه، في موضوع يتصل بأساطير نهاية العالم في القرون الوسطى. كان على دراية بكافة الفلاسفة اليونان، فضلًا

عن معرفته بالأساطير المختلفة، بما في ذلك الأساطير الإفريقية. كان يقترح علينا الكتب التي ينبغي أن نقرأها، وكان عندما يتحمس يمضي في المزيد والمزيد من الاستطرادات الطويلة. ومع سعة اطلاعه، فإنه لم يكن مُتحذلقًا، وقد فاجأنا بالتخلي عن دراسة الدكتوراه، وكان قاب قوسين أو أدنى من إتمامها، ليتعمق دراسة الماركسية.

كانت رؤية رودريغيز للعالم تميل نحو الفوضوية أو ربما نحو العدمية أكثر من ميلها نحو اللينينية. كان يقول إن الفوضوية تحررية، واللينينية سلطوية. وكان من الصعب عليَّ أن أفهم ما الذي دفعه إلى أن ينضوي تحت لواء الكفاح المسلح، لا سيما أنه لم يكد يعرف كيف يحمل بندقية. عندما طلبت منه أن يفسر لي معنى الفوضوية، ألقى عليَّ بمحاضرة عن تمرد العمال في مناجم الفحم وفي مصانع الغزل والنسيج. قال إن الفوضوية ألهبت خيال العمال، إلى درجة أنهم أسسوا مئات الصحف والمجلات ومنظمات العمال حول العالم حتى جاءت اللينينية فيما بعد لتخنق كل ذلك. ذات مرة فسر لي لماذا انضم إلى الكفاح المسلح قائلًا إن أحد شعارات الفوضوية تتمثل في المضي إلى ما هو أبعد من الكلمات، أي إلى الفعل.

فجأة تذكرت بورجيس. ألا تفكر في دعوة بورجيس؟ ولم لا؟ أنت تعلم ما يُقال عنه. أجاب: نعم أعلم، ولكن هناك من يُقسم على أن ذلك كذب. قُلت مُحتجًّا: نعم لقد غَشَّنَا، ولقد ثبت ذلك. مرت بضع ثوانٍ ثم قال رودريغيز: من التهور أن نحكم على الآخرين، فنحن نحكم دون أن نعرف الظروف، ونحن حقًّا لا نعرف شيئًا

عن قصة بورجيس هذه. تساءلت: إذن لا يمكن الحكم على أحد؟ ألا يمكننا أن نلوم أحدًا؟ قال رودريغيز: كل إنسان ألزمناه طائره في عُنقه. حسنًا، أتفق معك، لكن دعنا نخبره. كيف نخبره؟ حسنًا، إن دعوناه ولم يحضر فذلك يدل على أنه قد باع نفسه حقًّا، فأولئك الذين باعوا أنفسهم يُراوغون، مثل الأرواح الهائمة.

رد رودريغيز: أنت غير مُنصف. هل انتهى بك الأمر إلى حبل المشنقة؟ لا، لكني أعرف كيف كان الأمر. قال: حسنًا، إن أبشع شيء هو الخوف فذلك يدفع البعض إلى الجنون أو الانتحار، وأنت تعلم ذلك. نعم، أعلم وأقر بذلك.

شعرت بالخجل، ومكثت صامتًا لبرهة من الوقت. فكرت في بورجيس وفيما كان يعانيه. دارت بذهني صور أفكاري، والمتدربين، وافتتاح جلسة اتحاد الطلاب. الحق أننا لم نفترق إلا عندما دخل بورجيس كلية الطب ودخلت أنا كلية الهندسة. لقد هبطت عليَّ خيانة بورجيس كالصاعقة.

قال رودريغيز:

اليوم نتشابه كلنا، فنحن نعيش في نفس الظروف، في نفس المأزق، كل ما حدث هو أننا دلفنا إلى جحيم العدم، نذرع اللامكان، ولعل ذلك المؤتمر يجعلنا شركاء في رحلة جديدة، رحلة تاريخية، فوحدهم الذين عاشوا ما حدث في ريعان شبابهم يمكنهم أن يُدركوا حجم مأساة اليوم، إنها تلك الفاشية التي، فضلًا عن تدمير الطبيعة، قد دمرت نسيج المجتمع البرازيلي نفسه.

أومأت برأسي. وقد أعجبني جمال وبراعة ما قاله رودريغيز. تذكرت أنه فضلًا عن كونه واسع المعرفة، فإنه كان يتمتع كذلك برحابة الأفق. وهكذا، ومن خلال هذا الاجتماع، الذي لم يعتبره رودريغيز محض صدفة، بل دبرته آلهة القدر، ربما ندمًا على الضرر الذي حاق بنا، أو غضبًا من استشراء الفاشية، وُلدَ المؤتمر الوطني الأول للمختفين السياسيين.

عندما ودعنا بعضنا بعضًا، كان يوم جديد قد وُلِد.

# (٢)

ما إن افترقنا حتى تراكم الشك بداخلي. ما أهميتنا إن كنا فئة قليلة. إن كان عددنا ثلاث مئة فذلك جزء من الألف من المختفين في أمريكا الجنوبية، وهو عدد ضئيل جدًّا من المختفين في كل العصور. هل في مقدور فئة قليلة جدًّا أن يكون لها رأي مسموع على نحو ما يرى رودريغيز؟ لئن نجحوا في تشيلي والأرجنتين، فذلك يرجع إلى أنه كان هناك الآلاف من المفقودين، وهم ينتمون إلى عائلات حضرية معروفة. أما في البيرو فقد فشل الآلاف في مسعاهم، ذلك أن أغلبهم كانوا من الفلاحين المتواضعين، ولذا فلم يتم معاقبة أي جنرال بيروفي.

عندما عبرت عن مخاوفي لرودريغيز، أجاب: المهم هو النية. رغم أن عددنا قليل، لكن علينا أن نُحاول. أجبته: لكن لقد مر ردح طويل من الزمن. قال إن الوقت جعلنا أفضل، وقد تراكمت لدينا معرفة هائلة، وكل واحد منا مهم. تخيل أنه مع كل واحد منا ضاع مستقبل، وعائلة كانت ستتكون، وكتاب سيؤلف، وربما أغنية

ستصدح. باختصار: عدد لا نهائي من الاحتمالات. ولهذا يُقال إن في كل كائن تكمن الإنسانية جمعاء.

قلت: يا له من كلام جميل! فجاوبني: إن هذا ليس من عندي، بل إنه جاء في التلمود الذي يقول إن كلًّا منا فريد في نوعه، لأنه إذا كان التشابه موجودًا بالفعل، فلن يكون هناك حاجة إلى وجود المزيد. لا تنسَ كذلك أن جيلنا كان فريدًا في نوعه، إنه الجيل الذي وصل إلى عنان السماء، كما قال أحد شعرائنا. هل تتذكر ذلك؟ أجبته: نعم أتذكر.

لم أكن مقتنعًا، فسألته: لكن ما هي القوة الكامنة التي قد يتمتع بها نفر قليل من الناس؟ أجاب: لربما نفس قوة الآلهة الرمزية. لم أكن أعرف شيئًا عن الآلهة الرمزية. أوضح ذلك قائلًا: الآلهة الرمزية هي تجليات لآلهة هندوسية. أقوى الآلهة الرمزية هو كريشنا، وهو التجسد الرمزي الثامن لفيشو، إله الحفاظ على الكون. يتجلى كريشنا، الذي يتمتع بقوى خارقة، عندما يهدد البشرية شر مستطير. سألته: لكن لماذا سيكون لدينا نفس القوة؟ قال رودريغيز: لأننا كذلك كائنات خيالية؛ وهذا أمر مزعج جدًّا. إن ذلك يزعج المجتمع بأسره، لأن الموت يتطلب طقوسًا، أما نحن فلم نحظَ بأي طقوس. لقد تركونا لحالنا. هل لاحظت أنه لا توجد ثمة صلاة على المختفين كما هو الحال بالنسبة إلى الأموات؟ هل تعلم أن الموت غير المنتظر يُولِّد لدى بعض الشعوب انزعاجًا عميقًا إلى درجة أنه يُؤثر في المجتمع بأسره، كما لو كان مرضًا مُعديًا؟

لم أكن أعرف ذلك، بالطبع.

تابع رودريغيز: إن طقوس موتنا الاجتماعية لم تكتمل. إننا لم نفقد حياتنا فحسب، بل فقدنا كذلك الحق في القبر. هل تعلم أن الحق في القبر منصوص عليه في دستورنا؟

كان عليَّ أن أعترف بأنني أجهل ذلك أيضًا.

إن شاهد القبر يدل المجتمع على أن هناك جثة لشخص له وجه، ترك وراءه أبًا وأمًّا، وأصدقاء، وربما أطفالًا، وإخوة. لم يكن لدينا أيٌّ من ذلك. لقد أُلقينا في الحفر، أو في الأنهار أو في مجاري المياه، أو الغابات. لقد انتهكوا جميع حقوقنا، بما في ذلك حقوقنا الشخصية.

- حقوقنا الشخصية؟

- لست أنا من أَطلق عليها ذلك، إنه الدستور. إنه القانون. جاء ذلك في المادة الخامسة التي تنص على الحق في الحصول على صورة مشرفة ومحترمة حتى بعد الموت. إن قانون العقوبات يُخصص فصلًا كاملًا للجرائم الشخصية ضد الموتى. ومن بين تلك الجرائم التشهير بالجثة، حيث يُعاقب مرتكب الجريمة بالحبس والغرامة. ولا يقتصر الأمر على الجثة، بل يمتد إلى الرماد أيضًا. لذلك يمكنك أن ترى مدى الأهمية التي يوليها المجتمع لرفات الموتى. تخيل ذلك الأثر الذي تركته أولئك النسوة اللائي اختفين من أراغوايا، أو أولئك الذين كانوا في ريعان الشباب وقُتلوا غدرًا بكل

خسة بعد أن استسلموا. لقد كان من بين أولئك المقاتلين اثنتا عشرة امرأة. كان من بين أبناء مجموعتنا الكثير من الشخصيات الشهيرة، فلقد كان روبنز بايفا[1] نائبًا فيدراليًّا، كما أن ديفيد كابيسترانو قاتَل ضمن الألوية الدولية. تخيل قوة هؤلاء! قلت: لقد مضى ما ينيف على خمسين عامًا، فمن يتذكر هؤلاء اليوم؟ قال رودريغيز: إن مجرد ذكر أسمائهم يعطر ألسنة حتى من يجهلون وجودهم. سألت رودريغيز: كيف تفسر أننا ما زلنا نسير على ركب هؤلاء الذين أصبحوا شيوعيين في عشرينيات القرن الماضي، على الرغم من أننا يمكن أن نكون أبناءهم وحتى أحفادهم؟

قال رودريغيز: إن مثل تلك الأمور تمتد أجيالًا.

أجبته: لكن يبدو أن جيل اليوم لا يسعى إلى تحقيق أي شيء. أجابني قائلًا إن التقييم سابق لأوانه. لكن كل جيل لديه الفرصة لصنع التاريخ، أو على الأقل محاولة ذلك.

تأملت مرة أخرى جمال ما قاله. لكنه لم يُجِب على سؤال ما إذا كان عددنا كافيًا أم لا. تركت رودريغيز ومضيت لأبحث عن الإجابة. في نهاية المطاف، كم عددنا ومن نحن بالضبط؟ إننا لا نعرف ذلك جيدًا، لأن جوهر الاختفاء يكمن في إنكار كل شيء:

---

(١) روبنز بايفا (١٩٢٩-١٩٧١) عضو في مجلس النواب ومهندس برازيلي عارض الدكتاتورية العسكرية في البرازيل عام ١٩٦٨. تم إلقاء القبض عليه وتعذيبه وقتله على يد العسكر.

الجسد، والجريمة، والحقائق، بل وحتى الوجود. ما من دليل على أننا أموات. نحن من قُتِلنا ظنًّا، أو أتى على ذكرنا، في شهادة نادرة، أحد من نجوا من الموت، أو جلاد طارده الشعور بالذنب. لم يتم العثور على جثثنا أبدًا.

أحصينا في القائمة الرسمية مئتين وعشرين اسمًا. لكن القائمة لا تشمل أسماء مئة أو أكثر من الكابوكلوس الذين لا يُعرف ما إذا كانوا قد اختفوا أو فروا من الرعب بعد أن غيروا أسماءهم. وماذا عن المختفين من السكان الأصليين؟ لقد قدرت لجنة الحقيقة الوطنية مقتل ثمانية آلاف وثلاث مئة من السكان الأصليين، كما أن العديد منهم في عداد المفقودين. أوضح لي رودريغيز أن هؤلاء لن يحضروا المؤتمر لأن أرواحهم تسكن عوالم أخرى غير عالمنا.

لكننا سندعو أولئك الذين تم التحقق من وفاتهم، وإن لم يتم العثور على رفاتهم، أو اختلطت رفاتهم بغيرهم. هؤلاء أيضًا، وعددهم ثمانية وعشرون، قُتلوا دون أن يُدفنوا. هكذا نصل إلى مئتين وثمانية وأربعين ضيفًا. لكن من الممكن أن يظهر في أية لحظة ابن يطالب بجثمان أبيه، أو حفيد يطالب بجثمان جده. قد يظهر كذلك أشخاص مختفون لا نعرف حتى بوجودهم. ومن الممكن أيضًا أن يتم التعرف على رفات شخص مفقود في أية لحظة ويتم دفنها بشكل نهائي.

لن يتوقف البعض عن الاختفاء أبدًا: شُبان وشواب حرب العصابات في أراغوايا الذين تم حرق جثثهم في سيرا داس

أندورينياس، بالإضافة إلى أربع عشرة جثة أخرى تم حرقها في فرن مصنع السكر في كامبوس دوس جويتاكازيس. أولئك هم المختفون النهائيون والأبديون. لم يتبقَّ منهم شيء: لا مادة، ولا شكل، ولا ملمس، لا شيء على الإطلاق يمكن تجميعه أو استعادته. لن يُدفن رمادهم أبدًا، ولن تجد أرواحهم الراحة أبدًا.

رأى رودريغيز أنه يجب أن يُترك الأمر لهؤلاء لإدارة الاجتماع لأن هؤلاء لم يعد يهمهم تحديد مكان رفاتهم، وهكذا يمكنهم أن يكرسوا أنفسهم بالكامل للرحلة الجديدة. قلت إن كلهم تقريبًا كانوا صغارًا، ولم يبلغ أيٌّ منهم حتى سن الثلاثين، فهل من الممكن أن يكون لديهم النضج الكافي لقيادة اجتماع بهذا الحجم؟

لم يرد رودريغيز على سؤالي.

تأملت فيما قاله عن حق القبر. دون شاهد قبر يدعو إلى التدبر في وجودنا، ودون ضريح يُذكِّر بمرورنا عبر هذا العالم، فإننا نخضع لنوع فريد من الوجود في هذا الكون: أموات، حُرمنا من أن نكون بين الأحياء، لكننا لم نُدفن فحُرمنا من أن نكون بين الأموات.

كان من الممكن أن تتم محاكمة من فعلوا ذلك بنا بتهم الاختطاف وإخفاء الجثث، إلى أن يتم تحديد مكان رفاتنا والتعرف عليها. لكن المجتمع سارع إلى التسامح معهم. ولئن سمح المجتمع لنفسه في أي وقت بإبداء نوع من الانزعاج من غموض وجودنا، فإنه سرعان ما نسي ذلك. وكان ذلك هو الخطأ الجسيم.

ارتبطت الطريقة التي متنا بها، بالنسبة إلى معظمنا، بالطريقة التي عشنا بها. إننا جميعًا متنا قبل أواننا. لم نعرف سوى النزر اليسير عن الحياة. لقد تجرعنا جميعًا لفترة طويلة، وبلا تمييز، عذاب عائلاتنا في بحثها اليائس عن مكان وجودنا، ثم البحث عن رفاتنا فيما بعد. إن هذه ليست مجرد قصة مصائب فردية، فقد مات كل واحد منا موت الآخر. لقد تداخل عدد لا يُحصى من الناس ومن المتمردين الذين أغراهم مشروع إصلاح العالم في حياتنا قبل أن يموتوا أو يختفوا. إن رودريغيز لعلى صواب: لكلٍّ منا قيمته.

كان أكبرنا سنًّا نيغو فوبا وبيدرو فازينديرو، اللذان اختفيا إبَّان العيد الوطني في السابع من سبتمبر ١٩٦٤، في ثكنة للجيش في جواو بيسوا. لم يختفيا في إطار خطة ممنهجة للإخفاء. فكل ما هناك كان يتعلق بإخفاء الممارسات المتكررة لانتهاكات الشرطة. كان كلاهما يشغل منصبًا قياديًّا في رابطة سابي الفلاحية. سيكون من المدهش لو حضرا الاجتماع.

بعد ذلك بأربع سنوات، اختفى جوناس، وهو زعيم حركة التحرير الوطني. لم يُقتل جوناس على يد شخص مختل عقليًّا، بل على يد فريق من المختلين عقليًّا. هكذا بدأت حالات الاختفاء في الظهور كسياسة ممنهجة للدولة المارقة. هكذا وُلِدت آلة الإخفاء، وهكذا وُلِدت دولة الإرهاب، وهي ليست مجرد دكتاتورية عسكرية أخرى، بل هي طفرة نوعية في طبيعة السلطة، تصبح فيها حالة الطوارئ هي البنية الدائمة التي تُلغي كافة الحقوق والحريات الفردية والجماعية.

وبالاستفادة من آليات التخلص من المعوزين والمهمشين من الموتى التي كانت موجودة على الدوام، تم دفن أكثر من ثلاثين من أبناء شعبنا، بلا كرامة، وتحت أسماء مستعارة. إنه زمن البربرية الذي شهد تضاعف حالات الاختفاء. ومن عام ١٩٧٣ فصاعدًا، حكمت الدولة بالموت على أي منفي يعود سرًّا إلى البرازيل. وهكذا تعرض مقاتلو موليبو الذين عادوا من كوبا للموت بإطلاق النار عليهم الواحد تلو الآخر. كان خمسة منهم ينتمون إلينا. وهكذا أيضًا أطلقت الدولة المارقة عملية الرادار، التي من الأفضل أن يُطلق عليها عملية الإبادة. كان الهدف منها إخفاء أية قيادة سياسية قوية، بغض النظر عمَّا إذا كانت تحمل السلاح ضد الدكتاتورية أم لا.

لقد حل هذا الأسلوب، الذي أقره كلٌّ من الرئيس الجنرال ورئيس جهاز الاستخبارات، محل عمليات الدهس المضحكة التي تعتبر منهكة وغير كافية بأي حال من الأحوال. كان يتعين إذن إخفاء كافة الناشطين السياسيين المهمين، لا بسبب ما فعلوه أو ما لم يفعلوه، ولكن بسبب تأثيرهم المحتمل في تأسيس أية ديمقراطية تلوح في الأفق. أصبح الإخفاء أداة ممنهجة لنظام اجتماعي، ومن بين من اختفوا من ينتمون إلى حركة الطليعة الثورية الشعبية الذين تم استدراجهم بطريقة ماكرة من خارج البلاد لتصفيتهم.

لكن أكبر فئة لدينا هي تلك التي كانت تتألف من خمسين شابًّا، وقد باغتهم الجيش عندما كانوا يستعدون لشن حملة حرب

عصابات في منطقة الأمازون وتم قتلهم جميعًا على نحو ممنهج أثناء أسرهم. ولإخفاء الجريمة، نفى الجيش لعقود من الزمن وجود أولئك المقاتلين. وفي غضون ذلك، قام بنبش الجثامين وإحراقها. وعلى الرغم من أنه تم العثور على تسعة وعشرين شخصًا لاحقًا، فإنه لم يتم التعرف سوى على اثنين منهم فحسب.

يبدو أن كل الطغاة يتشابهون. لقد أمر هتلر أيضًا، عند شعوره بقرب الهزيمة، بنبش جثث ضحاياه وتحويلها إلى رماد.

لقد حددنا على نحو تفصيلي من نحن، لا لتمجيد ذواتنا ولا لإثارة التعاطف معنا -لقد مضى وقت التمجيد البطولي- ولكن ليكون هناك سجل دقيق للاجتماع.

عندما عرضت القائمة على رودريغيز، قال إن القائمة ينقصها اسم. قلت: من؟

- عامل البناء أماريلدو.

- لكن أماريلدو؟ ليس لنا علاقة بأماريلدو، إنه لم يكن رفيقًا لنا، بل ولم يكن حتى من عصرنا. كما أنه حتى في عصره، لم يُشارك في أي شيء. لقد كان غريبًا تمامًا عن مجتمعه. رد رودريغيز قائلًا: إن اختفاء أماريلدو يرمز إلى الوجود المطلق للدولة القاتلة عبر الزمن، وقد جعل الشعب من أماريلدو واحدًا منا.

كان عليَّ أن أستفيق مرة أخرى.

# (٣)

لم نعثر على أيٍّ من مختفينا، وساورنا أنا ورودريغيز نفس شعور الإحباط والحزن. بحثت سُدًى عبر دهاليز جامعة ساو باولو الفيدرالية، على حين بحث هو عبر ممرات مقبرة ريكاردو ألبوكيركي حيث دُفن خمسة عشر من رفاقنا في مقبرة جماعية. توقفت كذلك عند النصب التذكاري للمختفين داخل حرم جامعة ساو باولو. لا شيء.

شعرنا بالحيرة وتساءلنا: أين عساهم يكونون؟ قال رودريغيز إن اجتماعنا في براسا دا ريبوبليكا يعد أكثر أهمية مما اعتقدنا بادئ ذي بدء. قال إن لدى آلهة الحظ غرضًا أهم لم ندرك كنهه بعد. سألته: ماذا عساك تظن ذلك الغرض. قال: لعل ذلك يتمثل في الإطاحة بشبكة من الآلهة الموالين للفاشية. هل أضحينا لعبة في يد الآلهة؟ قال رودريغيز: لعل الأمر كذلك، فذلك يحدث عادة في الأساطير، ثم قصَّ على مسامعي تلك المواجهة التي حدثت بين هيكتور الطروادي وأخيل الإغريقي إبَّان حروب طروادة التي ساند فيها

بالاس أثينا الأخيليين، على حين تولى كل من أبولو وزيوس حماية أهل طروادة.

أمضينا الليل محبوسين، وعندما انبلج ضوء الصباح الأول، دارت بخلد رودريغيز فكرة: علينا أن نناقش فكرة الذاكرة. نحن موجودون في ذاكرة الأحياء، وإن اختفينا فذلك لأنهم ماتوا، أو نسونا، وهو الشيء نفسه؛ هل تدري أن النسيان عند اليونان يعادل الموت؟ كنت أجهل ذلك. فسَّرَ لي الأمر بطريقته الأكاديمية المعهودة: يُسمى النهر الذي يتدفق إلى مملكة الموتى في الأساطير اليونانية «ليثي» وهي كلمة تعني النسيان؛ من يشرب من مياه ذلك النهر، أو حتى يلمسها فإنه يُعاني من النسيان التام. أقررت بأنه من المنطقي أن الناس اليوم لا يعرفوننا إلا من خلال الصور الفوتوغرافية، فقد مات آباؤنا وإخوتنا كذلك. قال رودريغيز: كما أن هناك من أصيبوا بصدمة نفسية بالغة إلى درجة أنهم يبذلون كل ما في وسعهم كي ينسوا. أجد أن ذلك أمر عسير، فهناك أشياء أبدًا لا ننساها. قال رودريغيز إنه يوجد لدى اليونان آلية دفاعية جيدة، إلى درجة أن مُضاد كلمة ليثي في اللغة اليونانية لا يعني التذكر، أي عكس النسيان، بل يعني الحقيقة، بمعنى أن النسيان ما هو إلا نوع من الهروب من الحقيقة كما أن التذكر يعني قبول الحقيقة. سألته: هل يحتسون مياه نهر ليثي كي يتمكنوا من العيش. أجاب رودريغيز: لا تكن أخرق، فهم لا يحققون راحة البال إلا من خلال النسيان. تساءلت: وهل نسينا أطفالنا كذلك؟ قال رودريغيز: أي أطفال؟ كم منا لديه أطفال؟ وفضلًا عن ذلك فإن

كان هناك أطفال فإن ذاكرتهم مشوشة؛ إنهم معجبون بنا بلا ريب، بل إن بعضهم يشعر بالفخر تجاه والديه، لكن في لاوعيهم هناك ذلك الاستياء نتيجة الهجر واليُتم.

ألححت في السؤال: وماذا عن الأحفاد؟ أنت تعرف مدى صلابة الرابطة بين الأجداد والأحفاد. قال: لست أدري لماذا لم يكن لديَّ أحفاد، ولم يكن لديَّ وقت حتى لإنجاب الأطفال. قلت: حسنًا، كان لديَّ حفيد وفي وسعي أن أؤكد لك أنها كانت علاقة حميمة وسلسلة وتلقائية. علق رودريغيز قائلًا: لكنكم لم تعيشوا معًا لفترة طويلة، إن مثل تلك الذكرى تتوقف على ما يتذكره الحفيد، إنها ذكرى غير صالحة، الحق أن المختفين كلهم قد رحلوا وذلك يتطلب تفسيرًا. ولعل التفسير الوحيد الذي يمكنني أن أجده، هو التالي: إن كنا نحن موجودين في ذاكرة الآخرين، ولم يظهر أيٌّ من هؤلاء الآخرين، فذلك لأننا قد نُسينا ولم يعد لنا وجود.

اللعنة! لم يعد لنا وجود!

لم يكن في مقدوري أن أقبل ذلك. قلت: فما بال الرفاق الذين نجوا؟ هل نسونا هم كذلك؟ قال رودريغيز: لا ريب أنهم يشعرون بالذنب، كما أنهم يفعلون كل ما في وسعهم للنسيان. الذنب؟ على ماذا؟ قال: على أنهم قد نجوا. حسنًا، ليس من الضروري أن تكون مذنبًا لتشعر بالذنب، ألا تعلم ذلك؟ كنت أعرف ذلك، لكنني لم أستسلم: إن كنت أنا حاضرًا في ذكرى شخص ما، فأنا لا أزال موجودًا، فها أنت وها أنا هنا! أنا موجود فيك، وأنت موجود فيَّ.

لم يتوقع رودريغيز ما قلت، ولم يدرِ كيف يرد، وقضى ردحًا طويلًا من الزمن وهو يتفكر في الأمر. أخيرًا، أقرَّ بأن تفكيري كان صحيحًا. قال: يجب أن يكون الأمر كذلك لأن بيننا روابط لا تنفصم عُراها. لو قام شخص ما بقمع ذاكرة الناس فإن ذلك يمحو الرابطة العاطفية بينهم. ترددت في قبول التفسير وعارضته: على الرغم من أن جميع أفراد عائلتنا قد ماتوا وعلى الرغم من أن جميع أصدقائنا ورفاقنا قد نسونا، فإننا موجودون كذلك في النصب التذكارية، كذلك النصب الموجود في ريكاردو دي ألبوكيركي، وذلك الموجود في حرم جامعة ساو باولو، أو ذلك الموجود في خامبيوا. قال رودريغيز: لقد دمر الفاشيون كل شيء تقريبًا، وحتى لو بقيت بعض النصب التذكارية، فإنها مجرد جماد. إنها لا تفكر وليس لها مشاعر أو ذاكرة. اعترضت قائلًا: يبدو الأمر متناقضًا، كيف تخلو النصب التذكارية من الذاكرة. قال إنها ليست أكثر من معالم متحجرة. إن الذاكرة الحقيقية هي الذاكرة الحية، الذاكرة التي تتشكل من جديد، والحجارة لا تتشكل من جديد. سألت: وماذا عن غوغول؟ قال رودريغيز: لعل ذلك صحيح، لكن إن لم يتمكن أحد من الوصول إلينا هناك، فلا فائدة من ذلك.

قلت: سوف ترى أن آلهة الحظ هي التي رتبت اجتماعنا حتى لا يتم محونا نهائيًّا.

حدق إليَّ رودريغيز مدهوشًا وقال: هل حللت اللغز؟!

# (٤)

يمر أسبوعان ونصل إلى منتصف شهر مارس. الكرنفال. تعج الشوارع بالفتية والفتيات الذين يحملون علب البيرة ويثيرون الرغبة. لا نرى أزياء متقنة، كما كان الحال في الماضي، بل مجرد ريش بلاستيكي مصنوع في الصين. لم نعد نسمع مسيرات منضبطة، بل نشازًا متواصلًا. يقول رودريغيز مُعلقًا: إنه كرنفال الشباب المحطم. إن هؤلاء لا يحتفلون، بل يتظاهرون بالاحتفال فحسب.

بدأنا نخشى من فشل المؤتمر، وتزايدت لدينا الشكوك في أننا قد مُسحنا كذلك من الذاكرة الجمعية للناس، وذلك أمر مؤلم.

لكننا كنا على خطأ، فمن بين العديد من المواضيع المحتملة، نجد أن مدرسة مانغويرا[1] تضعنا جنبًا إلى جنب مع الشخصيات المحورية من أولئك المتمردين البارزين الذين انتفضوا على مر التاريخ ضد القمع. تُمجد رقصة السامبا المضطهدين والأبطال من

(١) مانغويرا (شجرة المانغو) هي فافيلا تقع على تل يحمل نفس الاسم. تشتهر مانغويرا بمدرسة السامبا التي تعد أكبر منافس لكرنفال ريو السنوي للسامبا.

البرازيل ابتداءً من مذبحة السكان الأصليين على يد المستعمرين البرتغاليين، إلى مقتل النائبة السوداء ماريل[1]. إنه عرض مثير للإعجاب يمتد ليغطي خمسة قرون من التاريخ.

قلت: نحن مدينون في ذلك لماريل، فوجهها موجود على جميع الأعمدة والجدران في ريو دي جانيرو، كما أن صورتها قد انتشرت انتشار النار في الهشيم على مختلف وسائل التواصل الاجتماعي. وقد أثار الإفلات من العقاب على الجريمة غضبًا عارمًا لدى الجميع.

وافقني رودريغيز على ذلك، فلم تكن ماريل مجرد سياسية ناجحة، بل كانت المرأة السوداء، كانت المرأة الفقيرة، كانت الأم العازبة، كانت سُحاقية، كانت ناشطة، لقد جسدت كل ذلك ولهذا قُتلت. ذلك ما أسميه الذاكرة الحية. لقد بحثوا في التاريخ عن أدلة جريمة ارتكبت اليوم.

يشيد الكرنفال بقادة المقاومة الشعبية ويشجب من عذبوهم. أصيب الناس بحالة من الهذيان في المدرجات. نسمع في صيحاتهم أبياتًا تمسنا جميعًا: إنهم صلبان بلا أسماء، بلا أجساد، بلا تواريخ، ذكريات زمن كان النضال فيه من أجل الحقوق جريمة تستوجب القتل. بدا الأمر كما لو أنهم عرفوا كم نحن محبطون، فقالوا لنا: لا تستسلموا.

---

(١) تم اغتيال ماريل فرانكو وسائقها أندرسون جوميش بالرصاص في ١٤ مارس ٢٠١٨ في وسط ريو دي جانيرو. وقد أشارت التحريات إلى وجود دوافع سياسية وراء الجريمة.

يقود العربة المهيبة التي تتقدم الموكب وتضبط إيقاعه عشرات من راقصي السامبا. يلعنون «الدكتاتورية القاتلة» بصرخات مدوية، على خلفية من الخوذات والوجوه الممزقة باللونين الأبيض والأسود، على نحو يتناقض مع الألوان الزاهية للكرنفال. على المنصة الرئيسية تبرز كإلهة، أخت رفيقنا توتي الذي استشهد واختفى.

تتشح هيلدغارد آنجل[1] بالسواد، وتضع نظارة سوداء، ونرى في ملامحها تجسيدًا كاملًا للألم.

تُلوح الخلاسيات بدمى عملاقة لماريل، كما يرفع أحد المارة على كتفه فتاة تعرض ليافطة كُتب عليها «تحيا ماريل» تم تصوير بيدرو ألفاريس كابرال[2] على أنه الغازي البشع الذي يتاجر في الزمرد، كما تم تمثيل العصابات التي قتلت واستعبدت السكان الأصليين على شكل جماجم دموية. يسير خلف الركب المئات من راقصي السامبا وهم يرتدون قمصانًا طبعت عليها صورة ماريل.

يظهر علم برازيلي عملاق وقد تحول إلى علامة احتجاج. كانت خلفيته أرجوانية وليست خضراء، تكريمًا للنساء. وقد حل شعار السكان الأصليين من السود والفقراء محل شعار «النظام والتقدم» تتتابع مجموعات من الأزياء، بعضها وراء بعض تكريمًا لأولئك

---

(١) هيلدغارد آنجل (١٩٤٩) صحفية برازيلية شهيرة، عملت في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي ممثلة في المسرح والتلفزيون قبل أن تتجه إلى الكتابة الصحفية.

(٢) بيدرو ألفاريس كابرال (١٤٦٧-١٥٢٠) مستكشف برتغالي، كان أول أوروبي تطأ قدماه البرازيل (٢٢ إبريل ١٥٠٠).

الذين ناضلوا ضد الظلم: جانجا زومبا، زومبي دوس بالماريس، تيرادينتس[1]. أما العبيد الماليون[2]، الذين تمردوا مرارًا وتكرارًا في باهيا وتم سحقهم بلا رحمة فقد مثلهم مئات ممن يرتدون أقنعة إفريقية وأغطية رأس ويحملون رماحًا طويلة مدببة. وقد تبع هؤلاء مجموعة من سكان غواراني الأصليين، الذين تزين رؤوسهم أغطية الرأس ذات اللون الأزرق اللامع.

يصل الكرنفال إلى ذروته من خلال دخول المئات وهم يتمايلون بتنانيرهم المصنوعة من الدانتيل، والمزينة بالأساور والحلي والخرز الملون.

كان رودريغيز مفتونًا مثلي وهو يشاهد كل شيء إلى جانبي. في نهاية العرض علق قائلًا: كم كان جميلًا ذلك الكرنفال. لئن كان الكرنفال مهرجانًا للفجور، فإنه كان كذلك نوعًا من الاحتجاج الجاد. كان احتجاجًا مؤلمًا بلا ريب. لكن أكثر ما أثار إعجابي أنهم ربطوا إفلات قتل ماريل من العقاب بإفلات اختفائنا من العقاب.

---

(١) الأول هو جانجا زومبا (حوالي ١٦٣٠-١٩٧٨). أول زعيم لمستعمرة العبيد الفارين في ولاية ألاجواش الحالية بالبرازيل. الثاني هو زومبي دوس بالماريس (١٦٥٥-١٦٩٥) يعد أحد رواد مقاومة حركة استعباد الرقيق في مستعمرة البرازيل. يُجسد زومبي رمز تحرر العبيد الأفارقة في الثقافة الأفرو-برازيلية. الثالث هو جواكيم جوزيه دا سيلفا خافيير أو تيرادينتس (١٧٤٦-١٧٩٢) أحد قادة الحركة الثورية البرازيلية التي استهدفت استقلال البرازيل وتأسيس الجمهورية.

(٢) تمرد مالي (١٨٣٥) هو أهم تمرد للعبيد في مقاطعة باهيا بالبرازيل. قام بالتمرد العبيد المسلمون من أصل إفريقي ضد العبودية وضد هيمنة الديانة الكاثوليكية. وكلمة مالي أو إيمالي في لغة اليوروبا تعني سكان مالي. وإن كان البعض يرى أنها تحوير للكلمة العربية «معلم».

لقد وضعوا ماريل في إطارها الأوسع بما يمنحها معنى، ولقد دخلنا نحن بكل قوة في الذاكرة الجمعية لمانغويرا. سألته: مانغويرا فحسب أم الناس أجمعون؟ هز رودريغيز رأسه وقال: لو كانت الذاكرة الجمعية ملكًا للجميع، لما كان للفاشية وجود. بقيت صامتًا لحظةً، ثم قلت بتؤدة وبنوع من الاقتناع: إذا كان الكرنفال ملكًا للشعب، وإذا كنا نحن موجودين في الذاكرة الجمعية لمانغويرا، فإن المؤتمر سوف ينعقد. قال رودريغيز: هذا صحيح، فذلك يجب أن يحدث. علينا العثور على الآخرين. تُرى أين ذهبوا؟ أجبته: لست أدري، من الممكن أن يكونوا هائمين على وجوههم في اللامكان، أو أنهم يستريحون في السحب النائية بعيدًا عن الأرض.

قال رودريغيز: بعد عرضٍ كهذا، فأينما كانوا فلا ريب أنهم سيظهرون من جديد. وبعد أربعاء الرماد[1] استأنفنا البحث، واقترح هو أن نعمل على توسيع نطاقه.

وذلك ما فعلناه.

(١) أربعاء الرماد هو أحد الأيام المقدسة لدى العديد من الطوائف المسيحية الغربية (مثل: الكاثوليك واللوثريين والأنجليكان).

# (٥)

أقيم الكرنفال يوم السبت، والتقينا يوم الاثنين في الساحة. كان رودريغيز مُبتهجًا، وبادرني قائلًا: «لا يمكنك أن تتخيل من التقيته اليوم، إنه بيدرو تيم». مستحيل! أين؟ في الكاتدرائية، فلقد ذهبت للتحقق من جدول تنظيم القداس، وكان هو هناك متكئًا في مكان الصلاة. بيتر في الكاتدرائية؟ لكن عائلته لم تكن كاثوليكية، بل لوثرية. صحح رودريغيز قائلًا: إنهم كانوا ينتمون إلى الطائفة المسكونية. سألته إن كان قد تحول إلى الكاثوليكية، فأجاب بأنه لا يُصلي، بل كان يتأمل. قال بيدرو إنه شعر بمجرد أن اختفى بالحاجة إلى التأمل، وهل هناك مكان أفضل من الكاتدرائية لذلك.

قلت إن والديه كانا كنديين، فلماذا لم يتخذ له ملجأً في السفارة الكندية عندما ضاع منه كل شيء؟ قال رودريغيز لقد كانت تلك أحد الأسئلة التي طرحها على نفسه. قال إنه اعتقد، لفترة من الوقت، أن ذلك بسبب تحليه بالشجاعة، ثم اعتقد بعد ذلك أن ما حدث كان بفعل نداء الاستشهاد، وفي نهاية المطاف استنتج أن

ذلك يرجع إلى شعوره بالذنب تجاه من سقطوا. وماذا يقول عن الكفاح المسلح؟ يقول إن لديه شكوكًا إزاء ذلك، وكلما تأمل الأمر مليًّا، زادت شكوكه. لكنه يقول إنه متأكد من شيء واحد، ألا وهو أن الكفاح المسلح لم يكن خيارًا يستند إلى العقلانية السياسية، بل ولم يكن حتى خيارًا، بل فرضًا فرضه واقع الحال فرضًا، كان نوعًا من إرادة القدر. وهل توافق؟ أوافق من حيث المبدأ على أنه لم يكن هناك عقلانية سياسية، لا سيما بعد مقتل ماريجيلا[1] ماذا قال بيدرو كذلك؟ قال إنه كان لديه خيال ديني منذ نعومة أظافره، وكان يؤمن بوجود حياة بعد الموت. وقد تطوع عندما كان مراهقًا وسعى ليحيا حياة حقيقية قوامها التضحية بالنفس. لقد تحدث باستفاضة عن ذلك، وقال إن المسيحية لها جناحان أحدهما يتمثل في التعاطف الذي يتمحور حول محبة يسوع ومحبة بعضنا بعضًا، أما الجناح الآخر فهو متعجرف بعض الشيء ويضرب بجذوره في مرحلة ما قبل المسيح، ويرمي هذا الجناح إلى إحداث تحول في المجتمع عن طريق السعي إلى خلاص الفقراء والمظلومين.

وعندما حل ماركس[2] محل يسوع لديه هو ورفاقه، أفسح ذلك المجال للعنف الثوري. لكن الواقع أنه كان دائمًا يمقت العنف،

---

(١) كارلوس ماريجيلا (١٩١١-١٩٦٩) سياسي وكاتب وناشط ماركسي-لينيني برازيلي. انتقد المقاومة السلمية للديكتاتورية العسكرية البرازيلية، وأسس حركة التحرير الوطني التي نشطت في حرب العصابات وكانت مسؤولة عن العديد من حوادث الخطف والسطو على البنوك.

(٢) كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) فيلسوف ومنظِّر سياسي وعالم اقتصاد واجتماع ولد في ألمانيا. أشهر أعماله «البيان الشيوعي» (مع فريدريك إنجلز).

وقال إنه من الأفضل ألا يموت أحد في سبيل مثله العليا. بدا وكأنه يعترف، وكان صوته حزينًا. أخاله كان مكتئبًا. سألت رودريغيز: ماذا عنا نحن الذين لم يكن لدينا ذرة من تدين، وما الذي دفعنا إلى القيام بما قمنا به؟ أجاب رودريغيز بسرعة: إنه العقل الثوري. لقد دفعنا إلى ذلك العقل الثوري. قلت بسخرية: إذن كانت هناك عقلانية. لقد ذكرت من قبل أنه لم تكن هناك عقلانية. كيف ذلك؟

بعد ثوانٍ معدودات بدا فيها رودريغيز مدهوشًا أجاب: كانت العقلانية الموجودة ذات طبيعة أخلاقية، وليست سياسية، كما أنها كانت ذاتية، ولم تكن أيديولوجية. لقد كانت مُعتقدًا وإيمانًا. أجبت: لا أرى أي فرق. قال إن الفرق يتمثل في أن الإيمان يكمن في اليقين بتحقيق الهدف من خلال العمل، أما الأيديولوجيا فلا تشتمل على ذلك دائمًا. كانت النظرية التي تم التركيز فيها من الأساس ترى أن الإيمان بالفعل يخلق الظروف المواتية للثورة، أم أنك نسيت ذلك؟ أصررت أنه بالنسبة إليَّ كان الأمر يتعلق بالأيديولوجية لا بالمعتقد. قال رودريغيز إن كلًّا من الأيديولوجية والمعتقد يولدان من رحم الخيال، لكن الأيديولوجية لا تتحول إلى عمل إلا إذا كان هناك اعتقاد، وذلك يفسر لماذا تتخذ العديد من الانتفاضات الشعبية أنماطًا عقائدية.

شعرت بالجهل، ولا بد أن رودريغيز لاحظ انزعاجي وحاول التهوين عليَّ: الحقيقة هي أن جيلنا كان مُقدرًا له أن يفعل ما فعل، كما قال بيدرو تيم، وأنا أتفق معه في ذلك. لماذا تعتقد أنني أكن كل ذلك

الحب للأساطير؟ لأن البشر، في الأساطير، يعتقدون أنهم يقررون، لكنهم في الحقيقة ليسوا كذلك، فقد قررت الآلهة بالفعل مصيرهم. قلت: لقد اعتقدت دائمًا أن كل شخص يصنع مصيره بنفسه. قال رودريغيز: إن فعلنا أو لم نفعل، فالإرادة متوفرة. كان من الممكن أن يلجأ بيدرو تيم إلى السفارة الكندية، لكنه لم يفعل. كل منا يُفكر ويُقارن ويقرر أن يقاتل أو لا يقاتل، ليبقى في الميدان أو يفر، إننا نقرر وفقًا لإرادتنا، وإن تم ذلك داخل إطار من تصور محدد مُسبقًا.

سألته: وذاك ما تُسميه القدر؟ قال رودريغيز: إن الأمر أشبه بذلك، فالمؤسسة الخيالية للمجتمع هي من صنع علم الاجتماع الذي يجعل ما قد يحدث أو لا يحدث رهنًا بما حدث بالفعل، أما المصير أو القدر فينتمي إلى فئة ثقافية ذات معنى مطلق، فهو واقع لا محالة. تنبأت ساحرات وكهنة أبوللو في دلفي بالمصير في الأساطير اليونانية، كما تنبأ به كبار الكهنة أو البابا لاو[1] في أساطير شعب اليوروبا، أو كبار القساوسة أو الباي دي سانتو[2] لدى الكاندومبلي[3] إن أولئك يتكهنون بما سيحدث، وهو ما يحدث دائمًا، بغض النظر عن حالة الصراع أو الأحداث غير المتوقعة.

---

(١) تعني البابا لاو في لغة اليوروبا حرفيًّا «أب الأسرار» وهو لقب روحي يشير إلى كبار الكهنة.

(٢) تعني الباي دي سانتو حرفيًّا «أب القديسين» وهو لقب يُطلق على كبير القساوسة في الديانات الأفرو-برازيلية مثل: الأومباندا والكاندومبلي والكيمباندا. والكلمة تحوير لكلمة بابا لوريشا التي تعني في لغة اليوروبا: «أب أرواح الأسلاف».

(٣) ديانة إفريقية تطورت في البرازيل وحدها في القرن التاسع عشر. تستند الديانة إلى توقير الأرواح التي تُعرف باسم أوريشا.

سألت، وكنا نتكئ على جدار: وكيف ينطبق ذلك علينا. وقف رودريغيز واستطرد ببطء وبنبرة رصينة، استطرادًا طويلًا، وبدا كأنه يُلقي درسًا على فصل دراسي.

إليكم ما قاله، وقد أعجبني أيّما إعجاب: لقد تشكل تاريخ جيلنا قبل وقت طويل من مولدنا، تشكل ذلك مع مولد القطار البخاري، ومن خلال الاستغلال الفظيع للعمال في المصانع الأولى. كان العمال يعملون طوال أربع عشرة ساعة في اليوم. هكذا ظهر الفوضويون، وحدث ذلك التمرد الحقيقي وعدم الامتثال للأوامر. ثم ظهر ماركس، ذلك المفكر الجبار، الذي أعطى لكل ذلك معنى. لقد كان مسيحنا، كان موسى الذي يدعونا إلى تغيير وضع العالم لتتوقف معاناة الناس. إن شعب ماركس هم البروليتاريا، من رحمهم وُلِدَ التاريخ. هل تذكر هذه العبارة؟ ستكون تلك المعركة هي المعركة الأخيرة التي سيتمخض عنها عالم جديد، كما يقول بيت الشعر الذي شدونا به في عيد العمال. هذا العالم الجديد هو مجتمع بلا طبقات! كان ذلك، كما ترى، هدفًا نبيلًا، وقد جعلنا من ذلك مشروع حياتنا لأننا اعتقدنا أن تحقيق ذلك ممكن. لكن ذلك كان مستحيلًا!

كان هدفًا لا يمكن تحقيقه! لقد حركتنا وسحرتنا أسطورة الخلق التي تشترك فيها العديد من الأساطير في نسختها الحديثة والعقلانية والفلسفية. خلقنا نحن الكون الخاص بنا، ونمط الإنتاج، والصراع الطبقي، والاغتراب، والديالكتيك، وفائض القيمة، والمادية التاريخية، والثورة. للمفاهيم سطوة هائلة لا تقل عن سطوة الوحي الذي تأتي

به الأديان. بغتة بدا الأمر كما لو أن كل شيء أصبح واضحًا جليًّا، وبدت الثورة أمرًا لا مفر منه. لكن الثورة كانت يوتوبيا! إن إيماننا بالثورة لا يجعلها ممكنة. إن الاعتقاد أو الإيمان أو الأيديولوجية أو أي شيء يدور بخلدنا لا يخلق في حد ذاته الشروط اللازمة لتحقيق رغباتنا، بل على النقيض من ذلك، غالبًا ما يبعدنا عنها. إن الشروط تأتي من خلال الحقائق، من خلال ظروف كل لحظة. لقد كنا نلقي بأنفسنا في القتال في خضم وضع اقتصادي مُزرٍ، وكنا معزولين عن الناس، كنا حفنة من الطلاب تحارب جيشًا قوامه مئتا ألف جندي. في عالمنا الخاص بنا كان التاريخ إلى جانبنا، لكنه لم يكن كذلك، واليوم أقل من أي وقت مضى، ذلك أن البروليتاريا في مفهومنا للعالم لا تصلح سوى للعالم الذي ولدت من رحمه، وذلك العالم لم يعد موجودًا.

أنهى رودريغيز حديثه ثم اتكأ على الجدار.

أذهلني كلامه ولم أدرِ ماذا أقول. وبعد بضع ثوانٍ، لاحظ تحيري، فاستأنف كلامه بنبرة أخف وأكثر حميمية:

- ولهذا السبب لن يكون مؤتمرنا مثل أي مؤتمر آخر؛ سيكون بمثابة لمّ شمل في زمن بالغ الأهمية بالنسبة إلينا، إنه يعيدنا إلى ذلك الوقت الذي سعينا فيه بكل شغف لتحقيق رؤية كونية ونضالية.

شعرت بأنه أحسن التعبير هذه المرة وسألته: هل أبلغت بيدرو تيم بالاجتماع؟

- لقد ألمحت له، ولم يفهم في البداية ما الذي أعنيه. وحتى بعد أن فهم بدا عليه التحفظ. وما الذي قاله بيدرو كذلك؟ لقد تحدث بإسهاب عن أخيه، وعن آخر مرة التقاه فيها. كان ذلك ههنا في هذه الساحة، هل تُصدق؟ لا؟ وكيف اختفى بيدرو تيم؟ يقول إنهم نقلوه إلى أحد المستودعات ولم يطرحوا عليه الكثير من الأسئلة، بل بادروا بضربه حتى فقد وعيه. ولماذا لم يأتِ معك؟ الواقع أنه لم يرِد ذلك، فلقد دعوته بإصرار، لكنه ادعى أنه غير مستعد. قال إن تفشي الفاشية أصاب الكثيرين بالاكتئاب، وقال إن ذلك أصابه هو شخصيًّا بخيبة الأمل مؤكدًا على أنه ما من أحد يريد رؤية أحد. إن الجميع يبحث عن ركن لينزوي فيه.

تدبرت الأمر، ثم سألت: لا أحد يريد أن يرى أحدًا؟ إذن، هل نستسلم؟ قال رودريغيز: مُطلقًا، لا استسلام، دعنا نبحث عن الناس. فلنذهب إلى نُصب أراغوايا التذكاري في خامبيوا، إن الكثير من رفاقنا يأتون إلى هناك. قلت: إن هذا النصب التذكاري مهجور. لا يهم، فعصابات أراغوايا تعرف كيف تتصرف. هل تعرف لماذا اختاروا بيكو دو باباغايو في غابات الأمازون المطيرة؟ أجبت: لأسباب إستراتيجية بطبيعة الحال.

مرت بضع ثوانٍ ثم قال رودريغيز:

- أعتقد أن السبب الحقيقي يكمن في رمزية الغابة؛ ستكون غابات الأمازون الكبرى بمثابة الرحم الذي تولد منه

حرب الشعب الطويلة: ذات الجلال، وذات العظمة. أجبته بأن الأمر لا يختلف كثيرًا عمَّا ذكرته. لقد أسسنا نحن قصة خلق الكون الخاصة بنا. قال رودريغيز: إن الفرق يكمن في أن عصرنا يميل إلى المفاهيم والفكر الخالص، مثل اللوحة التجريدية، أما عصرهم فكان له نوع من المادية والتراب الإقليمي. يُحدِث ذلك فرقًا كبيرًا، لا سيما عندما يحتل الناس منطقة يقدسونها. هل تعلم أنه بعد مرور ثلاثين عامًا، عندما تُوفي جواو أمازوناس[1] نُثر رماده هناك؟ وحتى يومنا هذا لا يزال أنصاره يشيرون إلى أراغوابا باسم كامبو ساغرادو (الحقل المقدس)؟ قلت: أعرف ذلك، فقد كان هناك فيلم وثائقي يحمل اسم: أراغوايا، كامبو ساغرادو.

تابع رودريغيز قائلًا: لقد كانوا مدركين تمامًا للبعد المقدس، إلى درجة أنهم لم يرغبوا في أن يدخلوا في أية علاقة مع المجموعات الأخرى، وكانت لديهم لغتهم الخاصة التي صاغوها في قواميس. أنا لا أعتقد أن من اختفوا في أراغوايا، وعددهم يناهز الستين، قد أصيبوا بالاكتئاب.

---

(١) جواو أمازوناس دي سوزا بدروس (١٩١٢-٢٠٠٢) مُنظِّر ماركسي برازيلي، كما كان عضوًا في حرب العصابات وزعيمًا للحزب الشيوعي البرازيلي.

# (٦)

وصلت خامبيوا بعد ظهر يوم السبت. شعرت بالدهشة إزاء الألوان المكثفة والمتناقضة لطلاء المنازل. قلت لنفسي: لئن كان السكان الأصليون يطلون أنفسهم حتى لا يتم الخلط بينهم وبين الحيوانات، فإن مدينة خامبيوا تريد أن تميز نفسها عن الغابة الكثيفة المحيطة بها. أحصيت، من علٍ، خمس كنائس إنجيلية، قلت لنفسي: إن الدولة العميقة في البرازيل هي التي تدفع العشور لُتساعد في بناء الكنائس وتصوت للفاشيين.

أراغوايا تيار من مياه موحلة. يتجول على طول الطريق الواقع على ضفاف النهر فتية قصوا شعورهم على أحدث صيحات الموضة وفتيات طلين شفاههن. يتبادل أولئك النظرات وعيونهم مثبتة على هواتفهم المحمولة. عند أحد أطراف الشارع، أمام النُّزُل، أرى فتيات أخريات وقد طلين شفاههن على نحو أكثر كثافة، يجلسن على الكراسي البلاستيكية في انتظار الزبائن.

قلت في نفسي: ماذا يعرف هؤلاء الأطفال عن سنوات الرصاص

وعن حرب العصابات؟ لربما سمعوا في طفولتهم كلمات عن عملاق يُدعى أوزفالداو، أو عن مقاتلة حرب عصابات تُدعى ماريا دينا[1]، تُشفي المرضى، وتُشرف على الولادات.

أسطورتان أخريان تنضمان إلى أسطورتي بوتو وكوبرا غراندي[2]. أم أنهم لم يسمعوا حتى ذلك.

لم تكن مدينة خامبيوا أكثر من مجرد مجموعة من البيوت الطينية والأكواخ الخشبية على ضفة غوايش لنهر أراغوايا، عندما مضى هؤلاء الفتية والفتيات سرًّا إلى هناك ليواجهوا حتفهم. كانت االمنطقة الشاسعة، التي يُطلق عليها بيكو دو باباغايو، والتي يعبرها نهرا توكانتينز وأراغوايا، قليلة السكان. كانت الأغلبية العظمى من المهاجرين الذين نزحوا من الشمال الشرقي أميين. كانوا يعيشون على الكسافا والذرة وبعض الخنازير والأسماك والسلاحف، كما كانوا يجمعون الجوز البرازيلي ويقايضونه بالملح والسكر والقهوة، وأحيانًا كانوا يعملون لدى شركات قطع الأشجار أو في مزارع الماشية نظير الحصول على طبق من طعام. إنه مكان العوز. مكان بلا قانون أو حكومة. مكان المسلحين ولصوص الأراضي. المكان المثالي لشن

---

(١) دانيالزا سواريش سانتانا كوكيرو، وتعرف كذلك باسم ماريا دينا أو دنيورا أو ماريا دينا (١٩٤٩-١٩٧٤) كانت مقاتلة في حرب العصابات في منطقة الأمازون، وعضوًا في الحزب الشيوعي البرازيلي.

(٢) بوتو ويُعرف كذلك باسم بوفيو أو درفيل نهر الأمازون هو أكبر أنواع درافيل الأنهار. يصل وزن الذكر إلى ١٨٥ كيلوغرامًا. كوبرا غراندي أو الكوبرا العملاقة هي حية عملاقة تعيش في غابات الأمازون.

حرب شعبية طويلة الأمد، وهو ما قدره أعضاء الحزب الشيوعي البرازيلي بعد أن وصلوا إلى سن الستين. عندما رأينا أسماء الذين اختفوا من الفدائيين وأعمارهم، فيما بعد، أصابتنا الحيرة. كان القليل منهم قد تجاوز الثلاثين، وقد وصل بعضهم بالكاد إلى سن البلوغ.

لقد تم التخطيط لحرب الشعب الطويلة بدقة، لسنوات طوال، وفي سرية تامة، حتى داخل أروقة الحزب، إلى درجة أن الأنشطة الحزبية العادية في المناطق المجاورة كانت محظورة، وذلك عكس ما تتطلبه الانتفاضة الشعبية.

أُطلق على المشروع اسم «المهمة الخامسة»، وأُطلق على الموقع المختار اسم «منطقة الأولوية». كان كل شيء مُشفرًا، على نحو تآمري. كان معظم رجال حرب العصابات المستقبليين من الشباب الذين شاركوا في الحركة الطُّلابية، بما في ذلك العديد من النساء، وقد تم اختيارهم وإرسالهم إلى أراغوايا الواحد تلو الآخر أو في مجموعات. تظاهر هؤلاء بأنهم مزارعون أو صيادون أو عمال مناجم. لقد اختفوا. افتتح أحدهم مشروعًا تجاريًّا، وقام آخر، وهو طبيب متخرج حديثًا، بإنشاء مستشفى صغير، وأصبح يُعرف باسم الدكتور جوكا، وهو اسم مستعار. أطلقوا على هذه المرحلة اسم التسوية، ولم يكن هؤلاء على عجلة من أمرهم، فقد كانت تلك بذرة طويلة الأجل. وهكذا مرت ست سنوات.

كان الجيش يعلم بتحركات أولئك كلهم، كما أن القادة كانوا على علم بأن الجيش يعلم كل شيء عنهم، لأنه ما إن وصلت طلائع

المقاتلين إلى أراغوايا حتى ظهرت عناوين الصحف التي تعلن أن المقاتلين يتدربون في الصين لشن حركة حرب عصابات في البرازيل.

لقد كشف تقرير مطول نُشر على عددين متتابعين من صحيفة فوليا دي ساو باولو عن أسماء وصور الكثير من هؤلاء. أشار التقرير إلى كل شيء عدا مكان انتشار أفراد حرب العصابات، لكنه كان مُرفقًا بخريطة للبرازيل مُوضحًا عليها مانو غروسو وغوايش وبرنامبوكو. لقد اكتشف الأمريكان الخطة عندما دَلَّت استخباراتهم على وجود مسلحين يزمعون الذهاب إلى الصين عن طريق مطار كراتشي!

في عام ١٩٧١ أطلق الجيش عملية «بلاد ما بين النهرين»، في جنوب الأمازون لتحديد موقعهم. تم التعرف على جوكا في بورتو فرانكو، وكان أحد الذين تم التقاط صورهم في كراتشي. نشر الجيش مُلصقات تحمل صور المتمردين الذين أطلق عليهم اسم الإرهابيين. في العام التالي تم شن الهجمات بعد أن تم التحديد الدقيق لموقع المجموعة في إيغاربي دوس كيانوس، وقد تم ذلك من خلال تعذيب أحد من انشقوا عن حرب العصابات. فاقت أشكال التعذيب التي تم استخدامها قمع دكتاتورية إستادو نوفو[١]. في غضون ستة أشهر مات أحد عشر شابًا، بما في ذلك الطبيب الوحيد

(١) تشير كلمة إستادو نوفو «الدولة الجديدة» إلى حقبة الدكتاتورية التي سادت البرازيل في الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٥ إبان فترة حُكم الرئيس غيتوليو فارغاس الذي كتب بنفسه (مع وزير العدل) دستور البرازيل الجديد عام ١٩٣٧.

جوكا، وفاتيما التي كانت تُلقب ببريتا، والتي اشتهرت كمقاتلة شرسة منذ أيام دراستها.

انسحب الجيش في سبتمبر، وكان من المؤكد أن يعود بقوة نيران مُضاعفة. بعد أن حدد الجيش موقعهم أصبحت الهزيمة أمرًا محتومًا. ومع ذلك، وعلى الرغم من مرور عام حتى عاد الجيش، وهو وقت أكثر من كافٍ لتنظيم انسحاب مُنظم وآمن، لم يتم إصدار مثل هذا الأمر. بل على العكس من ذلك، فقد طلب القائد العسكري لحرب العصابات تعزيزات من المقاتلين الأشداء الذين يتمتعون باللياقة البدنية والمهيئين ذهنيًّا لكل التضحيات. وفي غضون عام ونصف حاصرهم الجيش في مجموعات صغيرة ومنعزلة تمامًا وأبادهم جميعًا.

كان رودريغيز على حق، فبدون هؤلاء لن يكون لمؤتمرنا أي معنى. كما أنني أردت أن أعرف كيف حدث ما حدث، وما إذا كان صحيحًا، أم إهانة للجيش، أن أحدهم، وهو موندیکو، قد أُعدم على يد رفاقه وأن ستة منهم قد خانوه مقابل حصولهم على الحرية، وهم ما زالوا على قيد الحياة وقد غيروا أسماءهم. قلت لنفسي: لو حضر واحد فقط من الستة إلى المؤتمر للطخ العار المؤتمر كله.

حددت موقع النصب التذكاري لحرب العصابات عند مدخل المدينة، وكان مهجورًا وسط غابة. أما المبنى الذي يضم ذلك النُّصب فكان مُستطيلًا وغير مكتمل ويشبه قلعة مُحصنة. كان مُحاطًا بصحن استقبال للأقمار الصناعية وبمسلة شاهقة مطلية باللون

الأحمر القاتم. ارتفعت المسلة إلى عنان السماء حوالي ثمانين مترًا لتشكل أربع زوايا وبدا أنها تُعبر عن الألم في مواجهة ما لا يُمكن تحقيقه.

أحصيت ٥٩ اسمًا منقوشًا على لوحة مثبتة على قاعدة المسلة. ذكرني النقش بأول بيت من أغنية لتايغوارا[١] يقول: «أحمل على جسدي علامات عصري». بدأت تلقائيًا في الهمهمة: «يأسي، الحياة في لحظة/ الحفرة، الجوع، الزهرة، نهاية العالم/ لم أكن أرغب أن يضيع شبابي سُدًى/ لم أكن أرغب أن أذرع الحياة وأنا أموت مدى الحياة...»[٢].

شعرت بغتة بحضور أحد ما. التفت فرأيت رجلًا أسود طويل القامة، ربما يزيد طوله على مترين. كانت عظام وجنتيه بارزة، وكانت حواجبه كثة، وعيناه ضيقتين، وكان له لحية صغيرة. كان سواده شديدًا، أو كما يقولون، على من ينتمون إلى أصول إفريقية، أسود مزرق. كان يرتدي قميصًا وسروالًا قصيرًا، لكنه كان حافي القدمين. لاحظت أن قدميه عملاقتان وأن ساقيه مبتورتان.

تبسم الرجل الأسود في وجهي، وأضاف مُشيرًا إلى النصب التذكاري غير المكتمل: إن الأمر على هذا النحو منذ أكثر من عشر

---

(١) تايغوارا شالار دا سيلفا (١٩٤٥-١٩٩٦) مغنٍّ وكاتب كلمات برازيلي، اضطرته الدكتاتورية العسكرية في البرازيل إلى مغادرة البرازيل إلى لندن في منتصف سبعينيات القرن الماضي.

(٢) من أغنية «اليوم» Hoje (ظهر الألبوم الذي يحمل نفس الاسم عام ١٩٦٩).

سنوات، رغم أن هناك قاعة سينما وقاعة عرض ومكتبة ومتحف لحرب العصابات. كما أن البيت الأزرق مهجور هو كذلك.

سألت: ما هو البيت الأزرق. قال إنه ذلك البيت في مارابا الذي عذبوا فيه زيزينيو. الأمر على هذا المنوال ههنا.

- من هو زيزينيو؟

- أحد الناجين، وكان يُدعى ميكياس، كان يعرف زيزينيو، لكن لا فائدة من ذلك، فلا أحد يهتم، لا العمدة، ولا الحاكم، ناهيك عن الحكومة الفيدرالية.

- وكيف نجا زيزينيو؟

- كان يشبه الكابوكلوس تمامًا، ولهذا السبب كان يُطلب منه دائمًا الدخول إلى الغابة والخروج منها ليقود رفاقه، فقد كان يعرف مساراتها كما كان يعرف ظهر يده. وعندما تم القضاء على رجال حرب العصابات ومطاردة الناجين القلائل الواحد تلو الآخر، تمكن زيزينيو وجواكيم من اختراق الحصار، ولم يسيرا إلا في الليل، فعبرا غواياش وجنوب بارا في منطقة بياوي وركبا حافلة متجهة إلى ساو باولو، حيث اختفى زيزينيو، وأمضى عشرين عامًا مُختبئًا وغيَّر اسمه ولم يعاود الظهور إلا بعد صدور قانون العفو.

- أنت أوزفالداو، فمع كل هذا الشموخ لا يمكنك إلا أن تكون أوزفالداو! لقد جئت إلى هنا لأعثر عليك!

- قال مُبتسمًا: حسنًا، لقد عثرت عليَّ. ومن أنت؟

- أنا جابا، من حركة التحرير الوطني. قال إنه لا يعرف سوى النزر اليسير عن الجبهة.

- لكن ما الذي حدث لك حتى تبدو كالهيكل العظمي؟

- إنه الجوع يا صديقي، لقد كانوا دومًا يُطاردونني، وكان عليَّ أن أتجنب الطرق المعروفة والعناوين. لم أكن أقتات سوى على لحاء النخيل والبابسو والكستناء. أحيانًا كنت ألتقط سنبلة ذرة أو أقتل سلحفاة، لكن لم يكن لديَّ حتى عود ثقاب، أما بالنسبة إلى السلاح، فلم يكن لديَّ سوى منجل.

- كم استمر ذلك؟

- لم أُحصِ الأيام، لكنني أقدر أن ذلك تجاوز شهرين. كان قائد الدورية أرليندو بياوي، وقد أصبح صديقي لاحقًا، هو من أطلق عليَّ النار بنفسه من بندقيته. كنت لمَّا أزل أرى الملازم وهو يوجه البندقية صوب رأسي عندما فقدت الوعي.

- يقولون إنه كان لديك جسد قوي!

- تقول الأساطير إنني تحولت إلى مستذئب[1]، وأنني مت بعد قطع رأسي. كل ذلك كذب. ذلك ما فعلوه بالآخرين، فلقد

---

(١) وفقًا للأساطير فإنه يمكن أن يتحول الشخص لبرهة من الوقت إلى ذئب (إنسان ذئبي) لا سيما عندما يتحول القمر إلى بدر مكتمل.

قطعوا أذرعهم، وأرجلهم وإبهاماتهم، كما أنهم قطعوا الكثير من الرؤوس، ولكن ليس رأسي، فلقد مت موتًا كاملًا، كما أنا الآن. يقولون إنهم دفنوني في خامبيوا، ثم نبشوا جثماني وأحرقوني في سيرا داس أندورينياس. لست أدري إن كان الأمر كذلك، فكل ما أعلمه أنهم قتلوا الكثير من رفاقي من الكابوكلو.

- يقولون أيضًا إنهم حلقوا فوق الغابة بطائرة مروحية وجثتك تتدلى منها.

- لا أعلم، فكما قلت لك لم أرَ أي شيء بعد أن أُطلق عليَّ الرصاص. لقد فعلوا ذلك بجورجي، لذا فمن الممكن أن يكونوا قد فعلوا ذلك بي أنا أيضًا. لكن لماذا تبحث عني؟

تحدثت معه عن رودريغيز وعن فكرة المؤتمر وعن صعوبة العثور على الناس. أخبرته أن أكبر مجموعة كانت من أراغوايا، لذا قررنا أن نجرب حظنا هنا في نُصب خامبيوا التذكاري.

تحسس لحيته وبدت الحيرة على ملامحه ثم قال:

- سيكون الأمر صعبًا، سيكون صعبًا جدًّا.

- لماذا يُعد صعبًا؟

- قال: لقد رحلوا، كل واحد مدفون أكثر من الآخر.

- ما السبب؟

- البعض بسبب الوضع الراهن، بسبب وصولنا إلى ما نحن فيه، مع انتشار الفاشيين، لا سيما بعد أن ضحى هؤلاء بحياتهم من أجل مستقبل أفضل للبرازيل، والبعض الآخر بسبب الطريقة التي تمت مطاردتهم بها واحدًا تلو الآخر، مثل قنص الحيوانات، وهو أمر محزن جدًّا. يمكن القول إنهم ماتوا بالفعل قبل وفاتهم. أرى جوكا وماريانا من وقت إلى آخر، وأحيانًا أرى بريتا، أما الآخرون فلم أقابلهم مُطلقًا.

قلت: هناك شيء واحد لا أفهمه، إذا كان الجيش على علم بالخطة، فلماذا واصلتم؟ ألم يكن هناك وقت للاستسلام؟ أو لتغيير الخطط؟

- كان ذلك قرار الحزب، وقرار الحزب لا يمكن مناقشته، أليس كذلك؟ لقد أرسلني الحزب إلى تشيكوسلوفاكيا وأذعنت، وأرسلني إلى هنا وأتيت، وكذلك فعل الآخرون. لم يكن الشخص هو من يقرر بل الحزب. كلمة الحزب هي العليا. كان الحزب مُقدسًا، وحتى عندما كان هناك بعض النقاش، فما إن يصدر القرار حتى يتعين علينا السمع والطاعة.

- أصررت أن علينا أن نعثر على الآخرين. إن المؤتمر لن يكون له معنى من دونك. إن صوتك يجب أن يكون مسموعًا. إن تلك أيضًا فرصة لوضع حد للشائعات التي روج لها الجيش، ولكشف حقيقة ما حدث.

قال أوزفالداو بلهجة ساخرة: تلك حجة مقنعة. أنا في الطليعة من جديد. كنت من قبل مسؤولًا عن قيادة الشباب، والآن أنا مسؤول عن الكشف عن مصيرهم.

وكما ظهر الرجل فجأة، اختفى لمحَ البصر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# (٧)

بعد مرور اثني عشر أسبوعًا، وفي ليلة الأول من مايو، بعد القداس الأخير، وقفت أنا وبيدرو تيم وأوزفالداو في بهو الكاتدرائية. أنهى بيدرو تيم صمته الطويل، وقال أخيرًا اتخذت قراري. قال مازحًا: يا لها من مفارقة! لم يكن لي وجود من قبل فكان الحزب يقرر نيابة عني. كان هناك نحن فقط. لقد كنت بحاجة إلى أن أختفي لأقرر بنفسي.

قلت: هل تنكر النضال؟ أجاب بيدرو تيم: لا، على الإطلاق، فلطالما فكرت في النضال، وخلصت إلى أنه لم يكن شيئًا أخدع به نفسي، بل إنه البعد الواعي لقصة حياتي. إنه البعد الأهم في حياتي، وعليَّ أن أظل وفيًّا له. كان بيدرو تيم قد اقترح أن يكون الموضوع الافتتاحي للمؤتمر هو الاختفاء كوسيلة للإبادة. عهدنا بالأمر إلى رودريغيز فقد كان هو الأكثر استعدادًا. ظل رودريغيز في الداخل وقد ركز كل جهده في إعداد خطابه. كنت قلقًا: كم عدد من سيحضرون؟ وكيف سيتصرفون؟ وماذا عن الشباب من أراغوايا؟

قال أزوفالدوا أنه وبريتا قد عثرا على العديد من رفاقهما، وأكد أن هؤلاء سوف يحضرون.

كان بيدرو تيم مبتهجًا، قال إنه لم يحدث أبدًا أن انعقد مؤتمر للمختفين من قبل. بل إن أيًّا من الديانات الكبرى التي تهتم كثيرًا بالروح، لم تفكر في هذا الأمر. سنكون نحن الأوائل، الرواد، وربما يحذو الآخرون حذونا: أولئك الذين اختفوا في الجزائر، وكوسوفو، ورواندا...

- وكذلك في تشيلي والأرجنتين. لقد اختصرت القائمة.

- وافق بيدرو تيم وأضاف: وأيضًا من كولومبيا وغواتيمالا وبيرو، وبقية البلدان. هل فكرتم في عقد مؤتمر للمختفين من كل أمريكا اللاتينية؟ قال أوزفالداو إنه سيركز في مقاتلي أراغوايا. أكد بيدرو تيم على أنه لا توجد للمؤتمر مطالب، فلا يمكن أن يتحول المؤتمر إلى جلسة اعتراف أو حائط مبكى. إن المؤتمر متاح لكل من يكشف عن مكنون روحه، لكن لا ينبغي أن يكون هدفنا هو تصفيه الحسابات مع الفاشيين.

كان بيدرو تيم يتحدث وبدا لي أنه قد حدد بالفعل فلسفة الاجتماع. أعلم أنه سيكون هناك بعض البكاء، لكن سيكون هناك أيضًا الكثير من الفرح. سيجعلنا المؤتمر أبطالًا من جديد، وسيبين أنهم إن كانوا قادرين على إبادة المتمردين، فإن روح التمرد لا تموت.

قال أوزفالداو: دعونا نضع حدًّا لهذه الصورة للضحايا الساذجين.

أيد بيدرو تيم ما قال. لقد كافحت العائلات من أجل العثور علينا، ولذا فعلينا أن نتعلم من إخفاقات الماضي لنتمكن من محاربة مظالم الحاضر، وذلك هو الذي سيخرج هؤلاء المحبطين من قمقمهم.

- سأل بيدرو تيم: ماذا لو سارت الأمور على نحو خاطئ؟

- لن يحدث شيء من هذا القبيل، وسوف يكون كل شيء على ما يُرام. إن المشاعر التافهة تموت بموت الجسد.

- أليس ذلك ما يقوله دُعاة تناسخ الأرواح.

أجاب: مكتبة سُر مَن قرأ

- ما يقولونه هو أنه مع كل تناسخ تكون الروح في حالة أفضل. إنه نفس الشيء تقريبًا.

وافقت على مضض. تابع بيدرو تيم قائلًا: إن ما يهم هو أننا كنا رفاقًا في رحلة فريدة، وكان لدينا روح الإيثار، وهذا ليس بالأمر الهين. إن ذلك يجعلنا متفوقين لأننا تساميا على المشاحنات وتوافه الدنيا. تذكرت عندها خيانة بورجيس، وما قاله رودريغيز عن الحكم على الآخرين.

- تساءلت: وهل أولئك الذين خانوا أرواح خيِّرة كذلك؟

- قال بيدرو تيم بنوع من الغموض: إن خانوا مختارين فهم

أرواح منحطة، ولن يأتوا حتى إلى هنا لأنهم لم يعودوا يسكنون عالمنا الروحي. لكن ما سيحدث هو شيء مختلف تمامًا.

سألته: وما هو ذلك الشيء المختلف؟ لكن في تلك اللحظة بدأ أول المختفين بالظهور أعلى الدرج، ولم يرد.

ظهروا رويدًا رويدًا، أغلبهم فُرادى، وحيدين، كما كانوا يفعلون زمن التخفي. بدت عليهم الدهشة من الواقع الاستثنائي، من سيناريو البؤس والعوز الذي أذهلني أنا أيضًا والذي بدا واضحًا جليًّا على نحو أكبر هناك في ساحة الكاتدرائية وعلى سلالمها. لقد بدوا وكأنهم قد استيقظوا من سُبات عميق. أما قتلى المجازر فقد وصلوا معًا في مجموعات.

جاؤوا من كل حدب وصوب. من الشمال الشرقي جاء المختفون من اتحادات الفلاحين، ومن الشمال جاء الصبية من أراغوايا، ومن الجنوب الشرقي جاء المختفون من جيش التحرير الوطني، ومن الجنوب جاء جنود من اللواء العسكري الذين انضموا إلى منظمة الطليعة الثورية المسلحة[1]، فضلاً عن ستة من مجموعة أونوفري الذين قتلوا في منتزه إيغواسو الوطني. تقدمهم أونوفري بجبهته العريضة وبنفس النظرة المتغطرسة التي كان عليها من قبل. جاء

(١) منظمة الطليعة الثورية المسلحة هي منظمة حرب عصابات يسارية متطرفة حاربت ضد الدكتاتورية العسكرية أعقاب انقلاب ١٩٦٤ في البرازيل.

بعض من ألمع المختفين من ريو، من أمثال روبنز وتوتي وقائدي الحزب ديفيد ورومان.

أخيرًا، كانت البرازيل بكل أطيافها من المختفين حاضرة. قلت لنفسي: لقد اختفت اليوتوبيا العتيقة، وأضحى لدينا تمثيل متكافئ كما تنبأ بذلك بيدرو تيم. لقد قربتنا المأساة بعضنا من بعض.

كان ديفيد، من الحزب، أول من يصل. كان يرتدي بدلة كشمير زرقاء وجيهة من قطعة واحدة، وربطة عنق مخططة بها تجاعيد. لم تكن عليه أي آثار تشويه. عرفت قصته وعلقت على مدى روعة منظره. فهم ما أعني وقال: لقد كنت ميتًا بالفعل. لقد فعلوا ذلك لاحقًا. لم يتركنا ديفيد، بل انضم إلينا للترحيب بالآخرين. كان رقيقًا جدًّا. في نفس الوقت تقريبًا، وصلت فتاة ذات بشرة بنية داكنة جدًّا، ووجه بيضوي، وأنف صغير، كان من الممكن أن يكون وجه دمية، لولا نظرتها الصارخة. قال أوزفالداو إنها فاتيما، وكانت الأولى من بين النساء الاثنتي عشرة اللاتي اختفين في أراغوايا. لقد واجهت الدورية وجهًا لوجه، وعلى الرغم من إصابتها في ساقها، فإنها واصلت القتال.

تناول الاثنان أطراف الحديث لبعض الوقت. بعد ذلك وصل جوناس بوجهه الصغير، وكانت عيناه الغائرتان مصابتين بكدمات شديدة. كان يعرج واستقبلنا الواحد تلو الآخر، وتوقف عند ديفيد، كما توقف لفترة أطول عند أوزفالداو، الذي لم يكن يعرفه سوى بالاسم. قال وكأنه يفسر ما ظهر عليه، إنه بمجرد القبض

عليه بدأ في استفزاز الخاطفين. وأضاف: كنت أعرف الكثير لذا لم أرغب في أن أخاطر بأن يعذبوني.

كان الصغار في العمر يمرون بنا بحذر، ويحيوننا بنظرة وإيماءة بالرأس. أما من أثخنتهم الجراح فكانوا يسيرون مثل السائرين نيامًا، مُحدقين إلى أفق لا وجود له. نظر كبار السن إلى مجموعتنا الصغيرة، وكانوا عندما يتعرفون على شخص ما يعانقونه وتغمرهم الفرحة. هيمنت عاطفة جياشة على الجميع، وعبروا الرواق على نحو مهيب.

قفز صبِيَّان فوق الدرجات، وعندما تعرفا على بيدرو تيم، لم يتمكنا من كبح جماح مشاعرهما، فعانقاه وسط صيحات الفرح. أمضى الجميع وقتًا طويلًا في تبادل أطراف الحديث. تعرفت على إدواردو وفرناندو من خلال الصور. كانا صديقين لا ينفصلان. اختفيا في ريو يوم سبت الكرنفال. بعد هنيهة ظهر صبي طويل ونحيف جدًّا، يشبه الهيكل العظمي، لكن بأكتاف عريضة وأذرع طويلة. كان له وجه نحيل وأنف بارز وتبدو الكآبة على ملامحه. صعد الدرج ببطء. خطوة خطوة، وهو يعيد شعره المستقيم إلى الخلف باستمرار. همس أوزفالداو قائلًا: سيماو، لم أكن أعتقد أنك ستأتي. تعانق الاثنان لردح طويل من الزمن.

تعرف أوزفالداو وفاتيما على شباب أراغوايا على الفور، أما أنا وبيدرو تيم فلم نكن نعرفهم سوى من خلال القصص. قال كل منهم اسمه، واسمه الحركي، وبضع كلمات حول كيفية اختفائه.

بعد سيماو، وصلت سونيا، وهي امرأة جميلة ذات شفاه غليظة. ابتسمت عندما رأت أوزفالداو وتعانق الاثنان. أخبرني أوزفالداو لاحقًا بأنها أصيبت برصاصتين في ساقها، قبل أن يطلقوا عليها الرصاصة القاتلة، ثم تركوا جُثتها في الأدغال. على الفور ظهرت ماريا دينا. كانت بوجه صارم وبنظرة جامدة، لكنها ابتسمت كذلك عندما رأت أوزفالداو. قال أوزفالداو إنها حاربت ضد خمسة من أفراد الجيش فتحملت ستة أيام من التعذيب وماتت وهي تبصق على وجه الضابط الذي قتلها. بعد فترة وجيزة وصل جوكا، طبيب حرب العصابات، ووصلت معه دينا التي تحملت أسبوعين من التعذيب وقُتلت وهي تواجه قاتلها. عانق الاثنان أوزفالداو.

بعد بضع دقائق، ظهر ثلاثة أشخاص في أعلى الدرج: رجل عجوز ذو بشرة داكنة ووجه عريض وشعر رمادي يحيط به شابان. قال أوزفالداو: ذاك ماريو العجوز مُحاطًا بأوليمبيو ولوند. كان للرجل العجوز نظرة ثاقبة وملامح حادة. أوضح أوزفالداو أن الثلاثة قُتلوا بالرصاص في مذبحة عيد الميلاد التي راح ضحيتها ٧٣ شخصًا. تبع هؤلاء بخطوات قليلة زي كارلوس، ابن فيليو ماريو. كان ديفيد يعرف كبار السن، وجميعهم من قدامى المحاربين في صفوف الحزب، ولذا فقد استقبل ماريو العجوز بحفاوة بالغة.

ظهر رجل مسن وصبي يشبهه يدًا بيد. كان الرجل العجوز في الستينيات من عمره، والآخر في حوالي العشرين. صاح ديفيد: بورفيريو! مرحى! قال العجوز: هذا هو ابني دورفالينو. إنه معي

دائمًا مهما حدث. تعانق ديفيد والرجل العجوز لفترة طويلة في صمت. ثم دخل الأب والابن الكاتدرائية.

أخبرني ديفيد لاحقًا بقصتهم. لقد ألقوا القبض على الصبي، وهو أحد أبناء بورفيريو الكثيرين، للكشف عن مكان وجود والده. أساءوا معاملة الصبي كثيرًا، إلى درجة أنه أصيب بالجنون ودخل مستشفى الأمراض العقلية. اختفى كلاهما لاحقًا. كان لبورفيريو ستة أطفال من زوجته الأولى واثنا عشر طفلًا من زوجته الثانية. قال ديفيد: شخصية محترمة.

# (٨)

انعقدت الليلة الأولى للمؤتمر الوطني للاختفاء السياسي. عند الافتتاح، كان عدد الحضور مئة وعشرين شخصًا. لاحظت أن عامل البناء أماريلدو لم يحضر. تم تشكيل حلقات النقاش، وكان الحضور يتحدثون همسًا.

تُسمع صيحات التعجب من حين إلى آخر، وإن كان ذلك على نطاق محدود. أتساءل إن كان مرد ذلك أنهم ما زالوا في حالة ذهول، أم لتعودهم على الاختفاء؟ يسود جو مهيب وإن اكتنفه بعض الغموض. لقد كان رودريغيز على حق: كان يجب أن يعقد المؤتمر في الكاتدرائية. وكان على حق أيضًا عندما اقترح أن يترأس ديفيد الجلسات، فهو من قدامى المحاربين ضد الفاشية، منذ شبابه، عندما انضم إلى الألوية الدولية لمحاربة الجنرال فرانكو[1]، وبعد ذلك إلى المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الألماني.

---

(١) فرانسيسكو فرانكو (١٨٩٢-١٩٧٥) جنرال إسباني أطاح بالجمهورية الإسبانية الثانية إبان الحرب الأهلية الإسبانية ثم حكم إسبانيا بقبضة من حديد في الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٧٥.

يصعد ديفيد إلى المنبر، وتمر بضع ثوانٍ حتى يعم الصمت، وعندها فقط يفتتح المؤتمر: أيها الرفاق، مرحبًا بكم! ها نحن هنا، ساسة البرازيل المختفين، ونحن نستحضر كذلك في أفكارنا كل من اختفوا لأنهم ناضلوا من أجل عالم أفضل.

أما بالنسبة إلينا، فقد مر وقت طويل، وأصبحت المطالبة بتحديد مكان رفاتنا، وتحقيق العدالة أمرًا غير ذي بال، وإن كان ذلك لا يزال ضروريًّا. لم يكن ليظهر الفاشيون اليوم لو تم معاقبة جلادينا. لكن لئن فشل الأحياء، فالأمر متروك لنا نحن، ومن الآن فصاعدًا فسوف نطالب بالحقيقة والعدالة.

يتوقف ديفيد كما لو أنه يود أن يعرف تأثير خطابه. لا يوجد أي رد فعل، ويسود صمت مطبق. وبعد دقيقة يواصل كلامه:

- أيها الرفاق، بما إن هذا هو المؤتمر الأول للمختفين في التاريخ، فقد اخترنا موضوعًا افتتاحيًّا يتصل بمنهج الاختفاء نفسه. لقد فرض الاختفاء على عائلاتنا عذابًا لا يمكن تصوره. إن توضيح ذلك يقع على عاتق رفيقنا رودريغيز، الذي تواصلت معه طلبًا للحديث. أرجو منكم عدم مقاطعته، فسوف يكون هناك وقت للمناقشة.

يحتل رودريغيز المنبر. تُضفي لحيته الكثة عليه مظهر الحدة. يسيطر صوته الحازم والهادئ على القاعة الضخمة.

- أيها الرفاق... لقد تصالح البشر مع الموت، منذ العصور

البدائية، من خلال طقوس الجنازة. غطى إنسان النياندرتال موتاه بالحجارة، فلم يتمكن ذلك الإنسان من تحمل رؤية النسور وهي تنهش الجثة. وهكذا أصبح القبر هو العلامة الأولى على وجود الإنسان. وعبر آلاف السنين وحتى يومنا هذا لا توجد ثقافة تخلو من طقوس دفن الموتى. إن الجثمان مقدس جدًّا إلى درجة أنه ألهم واحدة من أقوى الأساطير في العصور القديمة، وهي أسطورة أنتيغون. منع كريون، ملك طيبة، دفن جثة بولينيس، لأنه خان طيبة، وأمر بتركها تتعفن. ترى أنتيغون، أخت بولينيس، أن حق الدفن هو قانون الآلهة، وتُغطي جسد أخيها غير المدفون بالتراب. يُعاقب كريون أنتيغون على ذلك ويحبسها في قبر حتى تموت جوعًا. يُحاول هيمون، ابن كريون وخطيب أنتيغون الموعود، إنقاذها، لكنه يفشل فيقتل نفسه. تُظهر الأسطورة أن حرمان الموتى من الدفن كان شكلًا متطرفًا من أشكال العقاب. وكان رفض دفن العدو إبان المعارك يُعد أيضًا وسيلة للانتقام والإذلال.

أعتقد أن ذلك هو ما فعلوه بشعبنا في أراغوايا. في الإلياذة أصيب هيكتور بجروح قاتلة على يد أخيل، وطلب إعادة جثمانه إلى طروادة لدفنها، ووعد بدفع فدية كبيرة في المقابل. وحتى اليوم، يبحث كبار السن الأستراليون في تركيا البعيدة عن رفات الأطفال المفقودين في معركة غاليبولي، في الحرب العالمية الأولى، كما يبحث المسنون اليابانيون عن المفقودين في الحرب العالمية الثانية في جزر المحيط

الهادئ. ويستخدم الإسبان أجهزة الرادار والكاشفات المغناطيسية لتحديد مكان رفات أولئك الذين اختفوا على يد فاشيي فرانكو منذ ما يقرب من قرن من الزمن. لكن لماذا هذه الضرورة لدفن الموتى؟ لكي ترتاح الروح.

يمنح اليابانيون حصة الأرز الرمزية التي يكرسونها لروح الميت كل يوم حتى ترقد روحه في سلام. ويعتقد شعب المابوتشي في تشيلي أنه إذا لم يتم دفن الجثمان، فإنه يمكن للسحرة أن يستولوا على الروح. تختلف الطقوس، لكنها كلها تشهد على قدسية جسد الميت، وهي علاقة أنثروبولجية حقيقية يختص بها جنسنا البشري. كانت تُرسم الأعمال الفنية على الأواني الجنائزية في العالم القديم، كما أن التوابيت كانت تُنحت من الحجر، وكانت تُشيد الأهرامات لحماية جثث الموتى. كان المصريون يحنطون الموتى ويزودون مقابرهم بأدوات تُستخدم في الحياة اليومية، ليمارس الموتى حياتهم هناك وكأنهم ما زالوا على قيد الحياة. أما في عالمنا الحديث، فلو كان المتوفَّى شخصًا مشهورًا، فإنه يحظى بمأتم مهيب في الاحتفالات العامة. ويحظى الجنود الذين يُقتلون في الحروب بمراسم جنائزية، وإذا فقدت جثثهم في المعركة، تُبذل جهود حثيثة لاستعادتها. لكل ذلك فإنني أسأل: لماذا حرمت الدكتاتورية عائلاتنا من جثامينا؟ أو كما تساؤل بولس الرسول: لماذا نهين الموتى وقد ماتوا؟ لإخفاء الجريمة المرتكبة. حتى لا يبقى أي أثر للجريمة. بإخفاء الجثة يتم إخفاء الجريمة وحجمها، فالإخفاء وسيلة لقتل الآلاف دون أن

يثير ذلك ردود فعل قوية، ذلك أن المجتمع المذهول يجد صعوبة في إدراك ما يحدث. ويستمر هذا الأسلوب بلا هوادة حتى يصل إلى مرحلته النهائية، وهي قمع تاريخ الاختفاء، من خلال قمع الأماكن في الذاكرة الجماعية. الذاكرة مثل القبر الوهمي. تُكرس الكنائس العتيقة أضرحة لكهنتها، وتشيد الأمم مزارات لقديسيها ممن يصنعون المعجزات، كما يزور الرجل البسيط قبور فنانيه المفضلين، ويوقر العديدون، لا سيما الماديون منا، تمثال لينين، في محطة فنلندا في سان بطرسبورغ، ويضعون الزهور عند قبر ماركس في لندن.

إننا نتسامى، وتُبعث فينا الحياة من جديد من خلال تكريم العظماء منا. لكن الإخفاء يقمع كل ذلك. قريبًا جدًّا، لن يبقى لنا شيء، فتلك هي النسخة الحديثة من القانون الروماني الرهيب الذي أمر بمحو أية ذكرى أو أثر أو صورة لأي شخص تعتبره الدولة خائنًا للوطن. يؤدي الإخفاء إلى محو حياتنا وكأنها لم تكن. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف عادت هذه الوسيلة إلى الظهور بعد ألفي عام من ظهور الرومان؟ ومن أعاد اختراعها؟ لقد عاودت هذه الوسيلة الظهور مع توجيهات هتلر التي أُطلق عليها «الليل والضباب» في ديسمبر ١٩٤١ والتي استهدفت تصفية أعضاء المقاومة في البلدان المحتلة. إنه قتل لا يُخلِّف وراءه أي أثر، تم استلهامه على نحو خبيث من قصيدة لغوتة[١] حيث يختفي في

(١) فولفغانغ فون غوتة (١٧٤٩-١٨٣٢) شاعر ومسرحي وناقد ورجل دولة ألماني. يُعد أشهر كاتب ألماني وكان له دور مؤثر في الآداب والفلسفة الأوروبية ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر حتى يومنا هذا.

ضباب اليوم الشهداء الذين أعدموا أو أولئك الذين لا يمكن ضمان إجراء محاكمة رسمية لهم. تمر السنوات، وفي حرب الجزائر، يتبنى الجنرالات الفرنسيون أسلوبًا أكثر دموية، وهو القضاء بصمت على آلاف المقاومين. تمر سنوات أخرى ويتعلم جنرالات الأرجنتين والبرازيل وتشيلي هذه الطريقة من الفرنسيين.

كان ذلك ما قاله رودريغيز. تلا ذلك برهة من صمت فهمهمة فضجة متزايدة. تذكرت أمي وهي تُبدل حبات الأرز في مُصلى بوذا كل صباح، حتى ترقد أرواح أبويها في سلام. وتساءلت عمَّا إذا كانوا قد وضعوا صورتي إلى جوار صور أجدادي، أم أن ذلك غير مسموح به إن لم يكن هناك قبر.

يأخذ ديفيد مكان رودريغيز ويقترح اختتام الجلسة. لكن لا أحد يتحرك. لا أحد يود أن ينهي الجلسة. تمر دقيقة أخرى. تقف امرأة في الثلاثينيات من عمرها في الجزء الخلفي من القاعة، وتتجه صوب المنصة وتطلب إلقاء قصيدة. لا تُفصح عن اسمها. طويلة، قوية، شقراء. ذات وجه طويل، وعينين صافيتين وأنف مستقيم، ومظهر لافت للنظر. تتكلم على نحو هادئ به لحن جميل. همست في أذن رودريغيز قائلة إنها هي وزوجها كانا آخر من انضما إلى منظمتنا وتم حرقهما في فرن مصنع سكر كامبوس دي جويتاكازيس. اسم القصيدة هو «المختفون»، وهي من تأليف أفونسو رومانو دي سانتا آنا[1].

(١) أفونسو رومانو دي سانتا آنا (١٩٣٧) شاعر وكاتب مقالات وأكاديمي برازيلي من أهم أعماله ديوان «أغنية وكلمة» (١٩٦٥) و«أي بلد هذا؟» (١٩٨٠) و«إلى امرأة ناضجة» (١٩٨٦)، وهو سلسلة مقالات كان قد نشرها في صحيفة أوغلوبو/ العالم.

تتحدث القصيدة عنا، لكن بما إن القصيدة طويلة جدًّا فسأقرأ الجزء الذي أحبه فقط.

بغتة في تلك الأيام
بدأ الناس يختفون على نحو غريب.
اختفى الكثير من الناس
في تلك الأيام.
الزهرة
التي حان قِطافها
تلاشت.
تاهت بين عنوان وآخر
أو في سيارة أجرة.
مُذنبًا كان أم بريئًا، اختفى.
عندما عاد من مكتبه
بين رشفه من نبيذ
وتلويحة يد، اختفى
تبخر الأب
قبل أن يرى ابنته.
أمهات يحملن أطفالهن ويتسوقن،
نساء حوامل، مجموعة من الطلاب

اختفوا
الميكانيكيون اختفوا
بعد أن شغلوا المخرطة.
اختفى، اختفى الناس
كثيرًا في تلك الأيام.
اختفوا أمام أعيننا
لا لقصر النظر، اختفوا
نرى شخصًا ما
ثم يختفي
اختفى الوضوح
واختفى الغموض.
حتى النواب والرؤساء اختفوا
الكهنة، كذلك، اختفوا
قد يعودون في الآخرة.
اختفى الصيادون
اختفى، اختفى الناس
كثيرًا في تلك الأيام
الممثلون على خشبة المسرح
بين لفتة وأخرى، اختفوا

والجمهور
بينما يضحك.
ليس سهلًا أن تكون شاعرًا
في تلك الأيام
لأن الشعراء، على وجه الخصوص،
اختفوا.

تميل المرأة إلى الخلف قليلًا، إشارة إلى انتهاء القراءة، وتعود إلى آخر القاعة.

من هناك يتناهى صوت أحد الحضور:

- الرفيق رودريغيز: ألم يكن الاختفاء مصدر إلهام لبعض الأساطير؟

- يجيب رودريغيز: لقد ألهم في البرتغال أسطورة السيباستيانية في أواخر القرن السادس عشر، أي الإيمان بعودة الملك سيباستيان الذي اختفى في معركة القصر الكبير. وتجسد هذه الأسطورة إعادة بعث عظمة الإمبراطورية البرتغالية، التي كانت في حالة تدهور. وهناك كذلك أسطورة الملك ست وهي من الأساطير المصرية الشهيرة. حسد ست أخاه أوزوريس، وقام بتقطيع جسده ونثر أعضائه، كما فعلوا هنا ببعض رفاقنا. تمكنت إزيس، زوجة أوزوريس، من جمع أعضاء أخيها، وإعادة تجميع جسده مرة أخرى. وهكذا عاد

أوزوريس إلى الحياة. إنها أسطورة البعث والقيامة أكثر منها أسطورة الاختفاء.

ترتفع عدة أذرع وتتحدث في نفس الوقت. يستأنف ديفيد الكلام، ويُعلن أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل. يُعطي الكلمة لروبنز، الذي يسير نحو المنبر برباطة جأش.

كان روبنز أكبر سنًّا من أغلب الحضور، وكان في الأربعينيات من عمره عندما اقتادوه إلى مركز الشرطة بحجة تافهة وأخفوه، ويُقال إنه دُفن ونبش جثمانه ثلاث مرات، قبل أن يُلقوا بجثمانه في البحر في نهاية المطاف.

قال روبنز في خطابه:

- أيها المواطنون: دعونا لا نسمح بتكرار الفظائع التي جلبت التعاسة لجيلنا تتكرر مرة أخرى. إننا بحاجة إلى النضال، وأنا أوجه خطابي بشكل خاص إلى العمال والطلاب الذين تضرروا بشدة من التيارات الفاشية النيوليبرالية. لم تكد ابنتي تُكمل ربيعها الخامس عشر عندما تم القبض عليها وتغطية وجهها وترهيبها لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. استغرق الأمر منها سنوات طويلة كي تتقبل موتي. أما زوجتي فقد مكثت في السجن أحد عشر يومًا. واستغرق الأمر منها خمسة وعشرين عامًا لتتقبل الاختفاء. كانت هذه هي الطريقة الوحشية التي تم اللجوء إليها لإبادة تيارات سياسية بأكملها: الاشتراكيين في تشيلي، والبيرونيين في الأرجنتين، والقوميين في البرازيل.

قُتل ما يناهز عشرة آلاف في تشيلي، اختفى منهم ما ينيف على ثلاثة آلاف، الواحد تلو الآخر، وذلك فضلًا عن المئات، وربما الآلاف، الذين لم يبقَ منهم أي أثر. لقد قرر الديكتاتوريون من يحق له أن يعيش ومن يجب أن يموت.

أود هنا أن أذكر الرفيق رودريغيز بمبدأ آخر من مبادئ القانون الروماني. وهو مبدأ «الرجل المتهم» Sacer Homo الذي يشير إلى أولئك الأشخاص الذين يمكن لأي شخص أن يقتلهم دون أية خشية من العقاب، ودون الحاجة حتى إلى تفسير سبب القتل. إنهم أشخاص قابلون للقتل. لقد كنا قتلة في البرازيل. اليوم، في مواجهة الفاشية التي تلجأ إلى الأكاذيب والعنف والإكراه، نعلم مدى الحاجة إلى حماية حياتنا. لا ينبغي أن نختفي أبدًا مرة أخرى! سُحقًا للفاشية!

كان ذلك ما قاله النائب السابق. جعلتني كلمة «قابل للقتل» أرتعش خوفًا. لم يكن لذلك المفهوم وجود في عصرنا. قُلت لنفسي: إذا كان الأمر كذلك، فإن موتنا قد تقرر بالفعل قبل وقت طويل من قتلنا. لم يكن ذلك لأننا حملنا السلاح، ولا بسبب أي شيء فعلناه أو لم نفعله، بل بسبب هويتنا. وقد انطبق ذلك من قبلنا على السكان الأصليين، ثم على سكان الأحياء الفقيرة أو الفافيلاس.

موجة من الهمهمات. يطلب ديفيد التحلي بالصمت ويُعطي الكلمة لبيدرو تيم:

– أيها الرفاق، قبل أن أختفي فقدت شقيقين غرقًا، وفقدت ابنًا كان قد أصيب بالمرض وهو لمَّا يزل صغيرًا. تغلبت على ذلك

بدعم الأصدقاء والأقارب. وطهرنا ألمنا من خلال الحداد، وهكذا تحولت الخسارة إلى ذكرى وأعدنا تنظيم أسرتنا. عند الاختفاء يتم تدمير كل ذلك. تُقيم الدولة القاتلة قُداسًا آخر للموت، طقسًا مُروعًا يُبقينا معلقين لفترة طويلة بين الألم والأمل. يعقب ذلك البحث العقيم عن الجسد المخفي، وأخيرًا يُغرقنا كل ذلك في حزن دائم. إن عائلاتنا تعاني منذ أكثر من أربعين عامًا من حزن غياب الجسد. شكرًا لكم.

يدعو ديفيد الشخص التالي في القائمة وهو جوكا. يقف جوكا وهو في الثلاثينيات من عمره، ويتوجه إلى المنبر. كان وجهه صغيرًا وشعره أسود غزيرًا. عندما اقترب لاحظت توتره. تشير معلوماتي إلى أنه ولد في إيطاليا وهو الأجنبي الوحيد الذي التحق بحرب العصابات في أراغوايا. رفض الإذعان لأمر الاستسلام عندما داهمته دورية، فأطلق عليه الرصاص وكان من آخر من ماتوا.

تحدث جوكا بلكنة واضحة:

- لسنوات، طرقت والدتي كل باب، متوسلة أن تدفنني، ولم تتوقف في مسعاها البتة. كانوا دائمًا يقولون لها: دونًا إيلينا، لا يوجد لدينا معلومات واضحة. مرت خمسون سنة وما زالوا يخفوني. أعتقد أن التعرف على رفاتنا، رغم صعوبته. يجب أن يظل هدفنا الرئيسي: لم يعد ذلك يفيد أمي، فلقد ماتت بحسرتها، كما لو كانت هي نفسها قد فشلت. لكن ما أدعو إليه يخدم الآخرين والمجتمع بشكل عام. أنا لا أولي

اهتمامًا كبيرًا بالفاشية الجديدة، فتلك كارثة ستمر يومًا ما، لكنني أفكر في الشعب، في الجزء الصالح من الشعب. لا يمكن للأمة أن تشفي غليلها إن لم يكن الكثير من المختفين من أبنائها لم يدفنوا بعد. شُكرًا لكم.

بعد ذلك تحدث توتي، وهو شاب طويل القامة، وحاد الملامح. كان أنفه مشوهًا، وكانت الكدمات تغطي كل أنحاء جسده:

- بذلت أمي كذلك الغالي والنفيس لتسترد جسدي. أزعجتهم كثيرًا فدبروا لها حادث سيارة انتهى بقتلها. دعونا نواجه الأمر. إن أغلب من عرفوا الأماكن التي أُلقينا فيها لم يعودوا على قيد الحياة. لقد مر الكثير من الوقت. سنوات ثمينة. كان يجب أن يتم البحث عنا بمجرد سقوط الدكتاتورية، في الأيام الأولى، في الساعات الأولى. لكن جرى في ذلك الوقت الكثير من الأمور: الصراع الذي دار عند إصدار قانون العفو، والدستور، ودفع التعويضات. لا أنتقد رفاقي، لكننا كنا ضحايا، بشكل أو بآخر. لن يتم العثور على أجسادنا أبدًا، لكن أرواحنا تعيش لتدل على قيمنا وروابطنا الشخصية والعائلية، وجذورنا السياسية والتاريخية. إن أرواحنا ستكون كذلك نقطة التقائنا. أعلم أن الأمر سيكون صعبًا، لكني أعتقد أن هذه يجب أن تكون المعركة التي نخوضها. شكرًا لكم.

يدعو ديفيد جوناس. يجلس جوناس في الصف الأول ويتمكن

من الوقوف بصعوبة. يمكن رؤية ندبة على جمجمته، يكشف عنها غياب الشعر، كما يمكن رؤية عظمة بارزة تخترق جلد ساعده الأيمن. يحاول أن يتمالك نفسه، ويمضي صوب المنبر وقد انتفخ صدره:

- أيها الرفاق: إن إفلات فرق الموت من العقاب هو الذي مهد الطريق لقيام الدولة الإرهابية، كما أن إفلات الدولة الإرهابية من العقاب هو الذي مهد الطريق لتفشي الفاشية. أعلم أن الكثير من الوقت قد مر، لكن لم يفُت الأوان بعدُ بالنسبة إلى المجتمع لمواجهة فظائع الدكتاتورية. عند ذلك فقط يتم خلق وعي بنبذ الإرهاب، سواء من جانب الدولة أو من جانب العصابات الفاشية.

صمت جوناس لبضع ثوانٍ، وصاح: يحيا ماريجيلا! صاح أحدهم من الخلف: ماريجيلا حاضر أبدًا. تكرر الصياح على لسان بضعة أصوات منعزلة. تلا ذلك صمت محرج، ولم ينكسر الصمت إلا عندما أعطى ديفيد الكلمة للشخص التالي في القائمة وهي نيرا.

تأتي امرأة في الثلاثين من عمرها إلى المنبر. امرأة ذات وجه جميل، وملامح هادئة، ووجه فنانة سينمائية:

أيها الرفاق: إن مُداخلتي قصيرة. كنا ستة إخوة، وكنا قريبين جدًّا بعضنا من بعض. شاهدوا معي مدى انحراف طريقة الاختفاء. قضى إخوتي شهورًا وهم يتجنبون السؤال عني، ظنًّا منهم أنني لم أزَل على قيد الحياة، وخشية أن يفضحوا أمري إن سألوا عني. لكنني كنت ميتة بالفعل منذ اليوم الأول.

دعا ديفيد الشخص التالي في القائمة. وهو مارانياو- رجل في الخمسين من عمره، ذو شعر خفيف، ووجه بيضوي، ونظرة حادة. يقف الرجل ويتجول حول صحن الكنيسة وكأنه يتولى تقييم البيئة المحيطة به. يتحدث بصوت بطيء، وبلهجة شمالية شرقية واضحة:

- أيها الرفاق: أعتقد أنه كان من الخطأ قبول قانون العفو الذي يعفو عن الجرائم ضد الإنسانية. إن هناك ما هو قابل للتفاوض، ومالا يقبل التفاوض. الجرائم ضد الإنسانية غير قابلة للتفاوض. كان قانونًا غبيًّا لأنه ساوى بين المذنب والضحية، وكأنه من الممكن أن يتقاسم الضحية والجلاد نفس المرحلة الانتقالية. إن ذلك هو ما مهد الطريق لبزوغ الفاشية. كما أن لجنة الحقيقة الوطنية، فضلًا عن تأخرها وعدم صلاحيتها لتوقيع العقاب، لم تقترح حتى تحديد مكان رفاتنا. يا له من خطأ! أقترح مُراجعة قانون العفو من أجل فرض محاكمة المتهمين بارتكاب جرائم ضد الإنسانية. لا يكفي معاقبة مُجرمي اليوم، فلن ينتهي التهديد الفاشي إلا إذا تصالحنا مع الماضي.

هكذا تحدثوا، الواحد تلو الآخر. قدم كل منهم مقترحاته، كما كشف كل منهم عن جوانب من الدراما العائلية. تحدث القليل من صغار السن، فكشفت شابة كيف أن اختفاءها مزق عائلتها، ذلك أن والدها كان يدعم الدكتاتورية واستمر في ذلك حتى بعد اختفائها، فتفككت الأسرة. قال رجل مسن، ذو وجه مجعد،

وعينين رقيقتين، جملة تركت انطباعًا في نفسي: كان لديَّ خمس بنات، وإخوة كثيرون، وأبناء عمومة، وأعمام وأصدقاء، وعندما يكون للمرء أقارب كثيرون، تكون المصيبة أكبر. كنت سأكمل ستين سنة عندما أخفوني.

عرفت من ديفيد أن اسم هذا الرجل هو نيستور، وكان يعزف على الكلارينيت، ويُصدر جريدة الحزب لحركة الفلاحين. فوجئ نيستور بالمشاركة المحدودة للفلاحين في المؤتمر. قال إن الكثير من الكابوكلوس قد اختفوا، وليس فقط أولئك القلة المذكورون في القائمة الرسمية للمؤتمر، كما اقترح تنظيم رحلات استكشافية لتحديد مكانهم. عندما انتهى نيستور من مداخلته، لمع ضوء خافت على النوافذ الزجاجية الملونة للكاتدرائية، واختتم ديفيد الجلسة الأولى للمؤتمر الوطني الأول للمختفين السياسيين.

# (٩)

تُفتتح جلسات الليلة الثانية من المؤتمر. نُرحب أنا وديفيد وفاتيما بالوافدين الجدد ونحن في باحة الكاتدرائية. تظهر في أعلى الدرج مجموعة صغيرة ومتجانسة يبدو أنها تحت قيادة شخص يبدو أكثر تصميمًا في المقدمة. تقول فاتيما إنه بيدرو كاريتيل، وهو أحد سكان الريف الذين انضموا إلى حرب العصابات. يَصلون عابسين، لكن ما إن يلتقوا فاتيما حتى تتبدل ملامحهم. يتعانق الجميع وتبدو على وجوههم علامات التعجب. يتحدثون بعضهم مع بعض، ثم يدلفون إلى داخل الكاتدرائية. يدخل كذلك بعض الصبية، الواحد تلو الآخر، لكن لم نتمكن من التعرف عليهم. يبدو وكأنهم قدموا من أماكن مختلفة.

انتظرنا خمس دقائق أخرى وكنا على وشك الدخول عندما وصل المزيد من المدعوين قادمين من بعيد: كنت أعرف لويز ريناتو الذي اختفى في بوليفيا، كما كان هناك اثنان لم أكن أعرفهما. قدمهما إليَّ ديفيد. إنهما توليو ولويز كارلوس وقد اختفيا كذلك في بوليفيا،

وفي تشيلي. قال ديفيد إنه تم إلقاء القبض على توليو مع زوجته، ثم أخلوا سبيل المرأة، وأطلقوا النار عليه. يُقال إن سبعين جنديًّا أطلقوا النار على لويز كارلوس. كان في الخامسة والعشرين فقط من العمر.

ندلف إلى الصحن المركزي. تثير النقاشات ضجة مستمرة. لكن الجو العام يبدو أكثر حيوية وأكثر استرخاء من الليلة الأولى. يُضفي الضوء الخافت نوعًا من السكينة. اختفى توتر ليلة الافتتاح. أصبح عددنا الآن مئة واثنين وثمانين. لم يأتِ أماريلدو بعد. سألت نفسي: هل سيأتي؟ يفتتح ديفيد الجلسة، ويحيي المشاركين الجدد. قال إن هناك قائمة كبيرة من الحضور، ويدعو هيليني.

كانت امرأة تبلغ من العمر حوالي ثلاثين عامًا، ذات شعر أسود طويل، ووجه بيضوي، متناسق، ولكنه ذو ملامح حادة. تدنو وتصعد إلى المنبر. كنت قد التقيتها من قبل رغم أنها كانت تتبع منظمة أخرى. كان كلامها حادًّا:

- أيها الرفاق: كثيرون هنا يعرفونني من سجن تيرادينتس. بعد إطلاق سراحي، اختطفوني وأخفوني. تخرجت في قسم الفلسفة، ودرست المسرح والفن والسياسة. كنت مثل رودريغيز، مفتونة بالأساطير. اعتقدت، مثل ديفيد، أنه يجب علينا أن نتطلع دائمًا إلى الأمام، فالهزيمة هي التي تجعلنا نتعلم. نعم، علينا أن نستأنف النضال، ولكن على صعيد آخر. علينا أن نخلق روايات الأمل والفداء، وعلينا أن نركز اهتمامنا في عالم اليوم، في الجديد. ولا ينبغي أن يكون

ذلك من خلال العمل السياسي فحسب، ولكن أيضًا من خلال الفن والثقافة والمسرح والسينما ووسائل التواصل الاجتماعي. علينا كذلك مكافحة العنصرية، واضطهاد المرأة والتحيز العرقي. شكرًا لكم.

يدعو ديفيد الشخص التالي في القائمة، وهو أوزفالداو. يُهيمن جو من الإثارة على الجلسة العامة. كان أوزفالداو، البطل الأسطوري لحرب العصابات في أراغوايا، على وشك التحدث. خيم صمت عميق ثم تحدث أوزفالداو:

- أيها الرفاق: ما سأقصه على مسامعكم، يُفسر غياب بعض من أبناء شعبنا من أراغوايا عن الحضور. سأخبركم بما أعرفه وما رأيته بأم عيني، ولن أخفي عنكم شيئًا. إنها ليست قصة جميلة. هناك غدر وخيانة من جانبنا، وهناك سمعة سيئة وفظائع من جانب الجيش. عليَّ أن أفصل بين الغث والسمين. كنت أنا أول من وصل إلى بيكو دو باباغايو، عام ١٩٦٦. كنت صيادًا وقناصًا، وملَّاحًا، ومنقبًا عن المعادن. لقد فعلت كل شيء، وكونت صداقات، وكان لديَّ عائلة. عملت كذلك في الاستطلاع، ورسمت الخرائط. بعد ذلك وصل رفاقي، وحددت لهم الأماكن التي يتعين علينا أن ننطلق منها، وفكرنا في شراء العقارات، وافتتاح المشاريع التجارية. كان الناس فقراء وكانوا يعانون. ظل بعض منا في شيغاكوم جيبتو، بالقرب من زي أونكا. واستقر قسم

آخر في بلدة فلسطين بالقرب من سيرا داس أندورينياس، واشترى بعض الناس مزرعة في ساو جيرالدو، في كيانوس. أما جوكا فأسس مستشفى في أمارو.

افتتحت دينا صيدلية. وكانت تقدم إلى المرضى حُقنًا مجانية، وأنجبت أطفالًا. علمت شيكا الأطفال القراءة والكتابة. كان الصباح وقت الصيد والقنص وجمع ثمار الجوز ومشاركة الجيران ما يقومون به. في فترة ما بعد الظهيرة كنا نحفر مخابئ الذخيرة، ومخازن الملح والمؤن والأدوية في أماكن مختلفة من الغابة. كانت تلك نقاط الدعم عندما يبدأ القتال. بعد حلول الظلام، كان هناك وقت للقراءة والتدريب والإعداد السياسي، وكان كل ذلك يتم في الخفاء. يحل الظلام مُبكرًا في الغابة. كانت تلك سنوات السلام، لكنها كنت تعج بالمشقة وخيبة الأمل. ساور البعض الخوف، وسُرعان ما استسلموا. كان هؤلاء يعيشون في قرى نائية، على بعد خمسة كيلومترات بعضهم من بعض، وكانوا ينامون في أراجيح من شباك، وكان هناك الكثير من المطر، والكثير من البعوض. لا توجد راحة مع البعوض والجراد.

توسل نيلو أن يبرح، فأذنا له، واصطحبناه إلى الطريق، حتى أننا أعطيناه بعض المال. اكتشفنا بعد ذلك أنه تم إلقاء القبض عليه هناك وتعرض لضرب مبرح. انتهز بيدرو وزوجته ما حدث وفرَّا هاربين. تظاهر كارلوس بالمرض وغادر كذلك، أما لينا فتخلت عن زوجها وعادت. لم يصدمنا أيٌّ من هذا. كان ينبغي أن يكون ذلك بمثابة

تحذير، لكننا تمسكنا بروتيننا المعتاد. كان ذلك هو الخطأ الأول الذي ارتكبناه. كان القادة أيديولوجيين. ألف سيد كتابًا عن الحزب الذي تأسس منذ خمسين عامًا، وقدم جواكيم التقارير إلى الإدارة.

كتب العجوز ماريو مذكراته. كان الرجل على وشك العمى عندما قُتل. لم يكن ذلك عمى الأنهار، كما كنا نقول، أي ذلك العمى الذي ينتج من نبات البيوم، بل كان عمى الشيخوخة. إذن مرت ست سنوات لمجرد التحضير. ست سنوات في الغابة! يا له من قوت طويل! اشتد عود الصبية وأصبحوا رجالًا، وأصبحت الفتيات نساء. لم تكن ستة أسابيع أو ستة أشهر، بل ست سنوات. ولم يدرِ الناس بأي شيء. ولو كانت عشر سنوات، لبقي الأمر على حاله. كنا نتوق، في نفس الوقت إلى القتال، حتى أننا احتفلنا عندما ظهرت طلائع قوات الجيش. أخيرًا بدأت حرب الشعب التي طال انتظارها. احتفلت احتفالًا كبيرًا. يا له من وهم! بدأ الأمر على نحو سيئ، سيئ جدًّا، سنوات عديدة من التحضير، ثم باغتنا الجيش، وكان علينا أن نفر إلى الغابة، تاركين خلفنا الكثير من الطعام، وجهاز الراديو الجديد، والأدوية.

انقسمنا بعد الهجوم إلى ثلاث مجموعات، كانت إحداها معزولة تمامًا. سرعان ما عانينا من نقص في الطعام. كان الجوع نوعًا من العذاب. لكن أسوأ ما في الأمر هو نقص الملح والدواء. لم تكن قصة جميلة كما ذكرت. ما حدث هو أنه تم الإبلاغ عنا. اعتقد ماريو العجوز أن نيلو هو من فعل ذلك، لكننا بِتنا نعرف الآن أنه بيدرو،

وقد فعل ذلك من مكان بعيد في ريسيفي. أُلقي القبض عليه عندما أخرج بطاقة هويته وتمت معاملته بطريقة وحشية. في البداية تعاون السكان معنا، لكن ذلك لم يدم طويلًا، وسُرعان ما أبلغ أحدهم عن ماريا، وتم إطلاق النار عليها. منذ ذلك الحين تغير كل شيء. بدأنا نرى السكان كأعداء، وكان علينا أن نلتزم الحيطة والحذر للتحقق من عدم وجود ميليشيا أو دورية. طلبوا من جوكا تسليم نويسا وجيل وفلافيو، وأطلقوا النار على الثلاثة. لكن من نبه الجنود؟ حتى يومنا هذا لست أدري. مضى زيكا فوجيو ليطلب طعامًا من أحد السكان، فدست المرأة مبيدًا في الدقيق وأرسلت الصبي خارج المنزل لاستدعاء الميليشيات. مات الكثيرون في كمين، بعد أن غدر بهم السكان. كان هؤلاء هم أنفسهم الذين أطلقنا عليهم اسم الفلاحين، وأطلق عليهم جواكيم وفيليو ماريو اسم الجماهير.

والآن سأخبركم بالجزء الأسوأ من القصة. مضى نحو عام قبل أن يعود الجيش، وحان الوقت لتنظيم الانسحاب، لكن القيادة قدرت أنه حتى لو عاد الجيش ولو بأعداد أكبر، فإن اليد الطولى سوف تكون لنا. قدَّرنا أنه كان سيتسع القتال بحيث يتحول الأمر إلى معركة كبيرة. كان جواكيم هو القائد، وكان الأمر متروكًا له لإصدار الأمر، لكنه لم يفعل. كان ذلك خطأ آخر. في الحملة التالية للجيش قام الجنود بترويع وتعذيب السكان للإبلاغ عنا. استولوا على الدقيق والأرز وكل المؤن وأشعلوا النار في الأكواخ. علقوا الناس بأرجلهم وضربوهم ضربًا مبرحًا. أمضى الكابوكلو

كلوفيس ثمانية أيام في باو دي أرارا. وأُلقي بهيموجينيس في حفرة أطلقوا عليها اسم فيتنام. لم يقل الناس الكثير عن هؤلاء، فلقد كانوا أناسًا بُسطاء. لقد تحطمت حياة العديد من الناس البسطاء.

يمكن لزي كاريتيل الموجود بيننا هنا أن يؤكد ما ذكرت. لا زال بعض كبار السن يتحدثون عمَّا حدث حتى اليوم. إني أسمع ذلك ليلًا أحيانًا في الحانات. ذات مرة في بوم جيسوس دو أراغوايا، أفرغوا المدينة من سكانها وحبسوا الرجال، واضطرت النساء إلى الفرار، وامتهنت كثيرات منهن الدعارة، وأصيب البعض منهن بالجنون. لم يكن لدينا أي اتصال مع قيادة الحزب، ولا دعم لوجستي ولا أي شيء من هذا القبيل. تخيل حزبًا لديه خمسون عامًا من الخبرة في التخفي وليس لديه إمكانية الاتصال برقم طوارئ. حاولنا البقاء على قيد الحياة عن طريق القنص. الأدهى من ذلك أن الجيش عاد بعد أن صدرت له الأوامر بألا يُبقي أحدًا على قيد الحياة. أخذوا من أخذوا إلى فازيندا كونسولاساو وقاموا بإعدامهم.

كانوا أحيانًا يأخذون البعض ويقولون إن الهدف من ذلك هو الاستطلاع، فيقودونهم عبر الأدغال ويُطلقون النار عليهم في الظهر. حتى أنهم قتلوا من كانوا بالفعل في السجن. بعد مرور عامين على انتهاء الأمر بالقتل، استمروا في قتل كل من هو على دراية بتلك الفظائع. فضلًا عن ذلك فقد نظموا حفلة مع أحد عازفي الأكورديون واحتسي الناس الكاتشاسا[1] وبعدها أخفوا من تحدث منهم كثيرًا. وحتى

(١) مشروب كحولي برازيلي من الرُّم الأبيض يُصنع من قصب السكر.

يومنا هذا، يخشى سكان أراغوايا التحدث علنًا، وذلك ما اكتشفته من خلال جلسات استماع لجنة الحقيقة في مارابا حيث تابعت جميع الجلسات. في أكتوبر/ تشرين الأول، باغتوا ألفريدو ونونيس وزي كارلوس وزيبا وهم يسلخون خنزيرًا وأطلقوا النار عليهم جميعًا، وتركوا جثثهم مُلقاة في الغابة. في ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني قاموا بقطع رأس آري، وبعد ذلك بأسبوع قطعوا رأس تشيكاو.

نُقلت رؤوس القتلى إلى القائد، ثم نُقلت إلى بيليم وهي مغطاة بالمحاليل والثلج. على حد علمي، قُطعت رؤوس أربعة أشخاص هم آري وخايمي وتشيكاو وموندیكو. كان آري طالبًا يدرس الفيزياء، وكان في الخامسة والعشرين من العمر. أطلقوا عليه رصاصة في الصدر وبينما كان لا يزال يرتجف ضربوه بمنجل غير حاد على رقبته. تخيل أن تفعل ذلك بشخص لا يزال على قيد الحياة وتقطع رأسه. قمنا بدفن الجثة بلا رأس عند سفح جاتوبا. توليت أنا بنفسي، وبكل شرف، عملية الدفن. سمعت أن ذلك قد حدث أيضًا مع موندیكو. لكنهم عثروا على رأسه فيما بعد. لقد قطعوا جثامين هؤلاء وألقوها في حفر تمامًا كما فعلوا مع قطاع الطرق من الشمال الشرقي.

كان ذلك شرًّا مُستطيرًا. بعد ذلك حدثت مذبحة شافوردو، عشية عيد الميلاد، حيث داهموا خمسة عشر من رفاقنا وقتلوا سبعة منهم، بما في ذلك ماريو العجوز وبيدرو رودريغيز، وكلاهما من اللجنة العسكرية. انتهى عمليًّا كل شيء، لكن بعد أيام قمنا بإعادة

تجميع صفوفنا، واقترحت أنا وجواكيم أن يتم السماح لكل من يود المغادرة بالمغادرة. كان ذلك بمثابة القول: لقد انتهى القتال. كنا خمسة وعشرين شخصًا ولم يرغب أي شخص في المغادرة. كيف يمكن تفسير ذلك؟ هل خجلوا من أن يوصفوا بالجبن؟ لست أدري، لكن كل ما أعلمه أنه كان من الصواب بالنسبة إليَّ أنا وجواكيم أن نعطي الأمر بالانسحاب، ذلك أنه كان في سُدة القيادة، وكنت أنا أتمتع بخبرة كبيرة. لم يكن الأمر مسألة اختيار شخصي أو شجاعة، بل كان قرارًا سياسيًّا. عند ذاك لم يعد جواكيم وسيد معنا، فقد تم دفنهما، لكن ماريو العجوز كان لَمَّا يزل موجودًا، وكان في إمكانه التعبير عن رأيه. الحق أنني لا أصدر أحكامًا ولا أنتقد، لكنني أعتذر عن الخطأ. عند ذلك المنعطف انقسمنا إلى خمس مجموعات، واشتد علينا الجوع فطلب البعض منا طعامًا من السكان، مع العلم أن ذلك أشبه ما يكون بالاعتقال والإعدام. في ذلك الوقت لم يكن هناك مِن كابوكلو مَن لا يعمل مع الجيش، إما خوفًا أو طمعًا. كان لديهم قائمة بأسمائنا جميعًا، فطاردونا مثل الحيوانات واقتنصونا الواحد تلو الآخر.

لم يتمكن سيماو من الصمود فسلم نفسه لأحد السكان عند ضفاف النهر مُعتقدًا أنه سيتم إنقاذه. أخذوه هو وراؤول فضلًا عن بريغو غراندي وأطلقوا النار عليهم جميعًا. عندما تم إلقاء القبض على راؤول كان جائعًا ومريضًا. كان ما زال طالبًا سعيدًا يدرس الكيمياء الحيوية والصيدلة. كان من مشجعي نادي فلامينغو. عثر أحد السكان على جثته وقد نهشتها الحيوانات.

فقدنا أثر ليا عند بعض الصخور. أُلقي القبض عليها وهي تتضور جوعًا. الكثيرون انتهوا إلى نفس المآل: أنطونيو الفياتي، بيتو، فالدير، أوريا. عثر أحد الحطابين على أوريا المسكينة في حالة يُرثى لها. أما خايمي فألقي القبض عليه في كوخ وقد تآكلت ساقه بسبب داء الليشمانيات[1]. هل فهمتم الآن لماذا لم تحضر المؤتمر؟ كانت دينا من بين من آخر من ماتوا، فلقد ماتت وهي تواجه الجنود وجهًا لوجه. لقد أطلقوا النار على واحد وأربعين شخصًا بعد أن استسلموا بالفعل ولم يكونوا مُسلحين. لقد أردوهم جميعًا قتلى بلا سبب وبلا استئناف. إنها جريمة حرب. نشر الجنود خبرًا مفاده أن توكا وستة آخرين قد عقدوا صفقة وأقروا بذنبهم وأنهم يعيشون تحت أسماء مستعارة. يا للعار! في فبراير ١٩٧٤ تم العثور على نفر قليل ممن نجوا وقد ضلوا طريقهم في الغابات.

لكن أي تقرير عن هؤلاء يُكتب إن لم يتبقَّ منهم شيء؟ في البداية كذبوا قائلين إنه لم تكن هناك حرب عصابات أصلًا، فلقد ارتكبوا الكثير من الفظائع التي كان من المستحيل الإقرار بها. في نفس الوقت أخفوا الرفات، وشكلوا ثلاث فرق لاستخراجها وحرقها. أما الآن، فبما إنهم لا يستطيعون إنكار ما جرى، فقد بدءوا في تشويه القصة. ما سمعته مباشرة من زملائي، وما دار في جلسات استماع لجنة الحقيقة في مارابا ينفي أنه كان هناك اتفاق

---

(١) ينتج من طفيليات من جنس الليشمانيا. وينتشر بشكل عام من خلال لدغة الذبابة، ويشيع في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية.

بالإقرار بالذنب. لقد تحمل بياوي ثلاثة أشهر من التعذيب دون أن يُفصح عن أي شيء، وتم إطلاق النار عليه. أظهر سجل عمليات جلاده شيكو دولار إعدام بياوي وآري أرمبيرو ودودا وروزينيا وجوسياس. وشهد فاني، وهو عميل آخر، على إعدام بياوي ودودا. لعل الشخص الوحيد الذي نجا هو إدينيو، ليس لأنه أبلغ عمَّا رآه، بل لأنه كان حفيدًا لأحد العسكريين.

الواقع أنني طوال هذه السنوات لم ألتقِ إدينيو مُطلقًا. ومع ذلك، فإني أشك فيما قيل عنه، لأن هناك سجلات لدى البحرية ولدى الجيش تثبت أن العميل فاتو قد شهد إطلاق النار عليه. اليوم، يعد الجميع في عداد المفقودين. ما نعرفه أن جواكيم فر بمساعدة زيزنيلو وانتهى الأمر بإطلاق النار عليه في مذبحة لابا. عند الهجوم الأول للجيش، لم يكن سيد موجودًا، فقد ذهب لحضور احتفال بمناسبة مرور خمسين عامًا على تأسيس الحزب. ولسخرية القدر فإن سيد الذي أصر على ضرورة قيام حرب الشعب، عاش تسعين عامًا ومات طريح الفراش. والآن أتساءل: لماذا حدث كل هذا؟ الواقع أنني لست أدري كيف أقيِّم ذلك. لقد استمررنا حوالي ثلاث سنوات وكانت هناك ثلاث حملات، كل واحدة أكبر من سابقتها. كان عليهم أن يرسلوا أكثر من ألف جندي للقضاء علينا، وكنا نفرًا قليلًا. كما قلت من قبل، لقد كانت قصة حزينة. قصة قتل صبي لم يكد حتى يعيش حياته، كان من الممكن أن يصبح زعيمًا سياسيًّا، أو فنانًا مشهورًا. لا أمل أبدًا من التفكر فيما حدث.

كان جوزيه كارلوس يبلغ بالكاد عشرين عامًا عندما تم إرساله إلى الأكاديمية العسكرية الصينية. أما دودا فقد ترك دراسة الطب وهو في سن العشرين لينضم إلى المتمردين. كانا صبيين ليس إلا. كانت إليسا في التاسعة عشرة من عمرها عندما مضت إلى أراغوايا. لم يصل أغلبهم إلى سن الثلاثين. تلك هي المرارة التي ظلت، وتلك هي الضربة الموجعة التي لا تزال تؤلمنا.

ينزل أوزفالداو عن المنبر. لا يوجد أي رد فعل. لا يوجد حتى صوت واحد يتكلم. ساد صمت مطبق. لم نكن نتوقع أن يقص علينا قصة انتصار، لكل قساوة القصة حطمتنا. تمر دقائق، ثم يقف رجل عجوز في الجزء الخلفي من صحن الكنيسة يسانده شاب. يخطو الرجل خطوتين ثم يتوقف. نسمع همهمة. إنه ماريو العجوز. سيتحدث ماريو العجوز. يتمتع الزعيم العجوز بمظهر لافت للنظر: وجه كبير، وجبهة عريضة، وأنف حاد معقوف. كان من يسنده في مشيته هو ابنه كارلوس. يتضح من خطواته الحذرة أنه ضرير. ينزل ديفيد من المنصة، ويرحب به ترحيبًا حارًّا.

إليكم ما قاله العجوز ماريو:

- أيها الرفاق والأصدقاء! إن هذا المؤتمر لَإنجاز. لقد أرادوا محونا من وجه الأرض. لكن ها نحن هنا، في رحلة كفاح جديدة. وصف الرفيق أوزفالداو أهوال اللحظات الأخيرة من حياة بعض من رفاقنا الذين لم يتسنَ لهم حضور المؤتمر. إني أناشدهم أن يأتوا. ما من شيء لنخجل منه. لقد كانت

حركة حرب العصابات في أراغوايا حدثًا عظيمًا، وصفحة مجيدة من تاريخنا، لقد تركت مُثلًا عليا خالدة. أعرف أن الكثيرين ينتقدوننا، لكن إن كانت هناك أخطاء فإنها أخطاء تكتيكية وليست إستراتيجية. لقد قُلت في المؤتمر الخامس لحزبنا إنه، في ظل طبيعة القوى المهيمنة في بلادنا، لا يمكن تحقيق العدالة الاجتماعية والسيادة الوطنية دون اللجوء إلى الكفاح المسلح. إن الرأي القائل بأن الديمقراطية الاجتماعية تتحقق نتيجة للتطور الرأسمالي لهو قول يجانبه الصواب. لقد حافظت رأسماليتنا في جوهرها على علاقات إنتاج العبودية. لئن تغير الزمن، وتغيرت الأسماء، فإن الجوهر لم يتغير. والدليل على ذلك تلك الاعتداءات الفاشية على السلطات الثلاث في الجمهورية. إنني لأدرك أن الرد بالسلاح أمر لا يمكن تخيله اليوم، لكن الكلمات وحدها لا تكفي. ولا بد من التنظيم والتوعية والتعبئة حتى تحتل القوى الشعبية الميادين والشوارع وتتغلب على الميليشيات الفاشية. إن هذا المؤتمر ليشكل خطوة مهمة في هذا الاتجاه، فإيماننا بانتصار الاشتراكية هو إيمان راسخ.

ينزل الرجل العجوز من المنبر، ويعود ببطء إلى مكانه بمساعدة ابنه. قلت لنفسي: أُزهقت الكثير من الأرواح وليس هناك من ذرة ندم.

تمر بضع ثوانٍ ويدعو ديفيد الشخص التالي في القائمة. إنه بيدرو كاريتيل. إليكم ما قاله:

- أيها الرفاق! لم أتلقَّ أي تعليم نظامي في حياتي، لكن الحياة علمتني. انضممت إلى حركة ساو باولو لأنني آمنت بعدالة القضية. السؤال الذي أطرحه هنا هو: إذا كان السبب عادلًا، فلماذا كان الله قاسيًا جدًّا على عائلاتنا؟ لقد انزعجت زوجتي جوانا ممَّا حدث إلى درجة أنها أصيبت بالجنون. لا يتعلق الأمر بالإنسانية، أو بالمسيحية، أو بأي شيء من هذا القبيل. يبدو أن أحدهم قد تحدث عن ذلك أمسِ، لكن ذلك فاتني. إذا كان هناك أي شخص يستطيع أن يشرح لي سبب ذلك، أكون ممتنًّا له.

يستدعي ديفيد فاتيما، فتتوجه إلى المنبر وهي تعرج لكنها تمشي بشموخ. كانت كلماتها موجزة وحازمة.

- أيها الرفاق! إن ذكرياتنا ليست ملكنا وحدنا، بل إنها ملك للشعب، ولا يمكن أن تضيع، ذلك أن لها قيمة أخلاقية وقيمة سياسية. أنا أؤيد الاقتراح الداعي إلى ضرورة النضال لتأسيس مركز لتوثيق ما حدث. أقترح أن يتم تجميع شهادات الجميع حول كيفية إخفائهم، كما يجب أن نضع حدًّا نهائيًّا للعار الذي تسبب فيه الجيش. شُكرًا لكم.

يدعو ديفيد سيماو فيتقدم بخطوات بطيئة نحو المنبر. إليكم ما قاله:

أيها الرفاق! لقد تخليت عن كل شيء للانضمام إلى حرب العصابات. تركت ورائي عائلة محبة، وعملًا، ودراسة. تركت كل

ذلك. كان عمري يتجاوز بالكاد العشرين عامًا. عندما اضطررت إلى الاستسلام شعرت وكأنني رجل عجوز. ما إن دخلت إلى أراغوايا حتى شعرت بالندم واجتاحني حزن عظيم لا نهاية له. لكنني تعافيت رويدًا رويدًا واستردت إيماني بالقضية مرة أخرى. لعله كان عليَّ أن أعود أدراجي في نفس اليوم الذي وصلت فيه. ماذا أعرف عن حرب الشعب الطويلة؟ لا شيء! ماذا أعرف عن شعب أراغوايا؟ لا شيء! لا شيء مُطلقًا. لم نتمكن حتى من معرفة ذلك، وكنا في أوائل العشرينيات من عمرنا. رُبما كان من أرسلنا إلى أراغوايا يعلم، أما نحن فلم نكن نعلم. اليوم، نحن هنا محض أشباح، كما أن جانبًا كبيرًا من الناس الذين أردنا تحريرهم يفضلون العيش في ظل الفاشية. أعتقد أن الأمر برمته كان ضربًا من الجنون. لقد مضى الندم. لكن الندم على الألم الذي سببته لوالدي لم يُفارقني أبدًا. أطلب منه ومن عائلتي المغفرة.

ينزل سيماو ببطء من المنبر ويعود إلى مقعده. يترك ديفيد بحبوحة من الوقت بعد خطاب سيماو ربما لُيعطي الفرصة لمن يريد الرد عليه. مع ذلك لم يطلب أيٌّ من الحضور ذلك، وساد صمت مطبق. دعا ديفيد جواو مارينييرو إلى الحديث.

كان شابًّا في مقتبل العشرينيات من العمر. لم أكن أعرفه حق المعرفة. صعد إلى المنبر، وكان مارينييرو أحد من وشى بهم العريف أسيلمو. بدأ جواو مارينييرو كلامه بهدوء لكن نبرة صوته كانت مملوءة بالمرارة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أيها الرفاق! إنه ليؤسفني ما سأقوله لكم. لكنني جئت إلى المؤتمر لمجرد أن أقول هذا: إن الشعب البرازيلي لا يستحق تضحياتنا، لقد قاتلنا ومُتنا عبثًا. ما زال الرؤساء على حالهم، كما أن نسبة الجهلة والبُلْه والأوغاد بين السكان قد تزايدت كثيرًا. إن الأحمق أو الوغد لا يُدرك ما يدور حوله. إنني لأشعر بالخزي لأنني بذلت حياتي من أجل هؤلاء الناس.

أثار خطاب جواو مارينييرو ضجة، وأراد كثير من الحضور تناول الكلمة. لم يحفل ديفيد بذلك واتبع نفس التسلسل الذي ورد في القائمة. استدعى ديفيد أونوفري، الذي كان قد تحدث بالفعل في الليلة السابقة. وهذا ما قاله أونوفري:

- أيها الرفاق! إن لديَّ خلفية عسكرية. أقول إنه كان من الخطأ قبول قانون العفو. لقد تمت محاكمة ومعاقبة القتلة من العسكريين والجلادين في كافة البلدان، باستثناء البرازيل. أما بالنسبة إلى المؤتمر المزمع عقده مُستقبلًا، فإنني أقترح دعوة المختفين من تشيلي والأرجنتين. إن معركتنا واحدة، كما أن علينا أن نتعلم منهم. بالطبع، ليس من الممكن أن ندعو الجميع، فذلك ضرب من ضروب المستحيل. لكن في إمكاننا أن نطلب من كل دولة أن تُرسل وفدًا. شُكرًا لكم.

يدعو ديفيد إيفانيلدو إلى الكلام. يقترب من المنبر رجل ذو جبهة عريضة وذقن رفيعة. تعرفت عليه من أغلفة بعض كتب

الطلاب التي كانت في حوزتي. كان يشغل منصب سكرتير الحاكم ميغيل أرايس، ولم أعلم أن اسمه الحقيقي لم يكن إيفانيلدو. تحدث الرجل بكل حماس.

مكتبة سُر مَن قرأ

- أنا لا أشارك جواو مارينييرو خيبة أمله، فأنا على يقين أن الشعب البرازيلي سوف يُكفِّر يومًا ما عن أخطائه. مع ذلك فعليكم ألا تنخدعوا وتعتقدوا أن الكارثة التي حلت بالبلاد قد انتهت إلى غير رجعة. أقول لكم بكل اقتناع: إن الميثاق بين الشعب، لا سيما الطبقة الوسطى المقهورة، وبين اللصوص من أرباب العمل، ليس عقدًا مُؤقتًا، بل إنه يمس النفس البشرية عينها، تلك الجوانب الشريرة من الروح: الخداع والوحشية واللامبالاة والخُبث. إن تحالف الشر الذي تم تشكيله لا يمكن أن يُنتج سوى مزيد من البؤس ومزيد من الحزن. لقد حاولوا مهاجمة أسس الجمهورية، ولسوف يُحاولون كرة أخرى. أتوقع أن تكون أمامنا فترة طويلة من الظلام أسوأ بكثير من سنوات الرصاص التي عاشها شبابنا، ذلك أن شره الفاشية للموت لا حدود له.

بدا ذلك كأنه نذير شُؤم. صمت الجميع، وإن كان البعض قد عبَّر عن عدم موافقته على ذلك بهز رؤوسهم والتلويح بأيديهم. يطلب جواو مارينييرو المداخلة، ويتحدث من مكانه بصوت متحمس:

- لقد ضحينا بالغالي والنفيس لإصلاح البلاد، لكن الأمر الآن متروك للشباب. إن هؤلاء عالم آخر، لا ينتمي إلى عالمنا.

يدعو ديفيد الشخص التالي في القائمة وهو بيتو. يتوقف الهمس، وأشعر بتزايد حدة التوتر. يقف شخص في نهاية القاعة ويمشي الهوينى صوب المنبر. يهمس أوزفالداو في أذني: إنه أحد ثلاثة أشقاء، قتلوا جميعًا في أراغوايا.

- أنا بيتو. لست أدري إن كان كلامي سيصل إلى والديَّ. أتحدث لأطلب منهما الصفح. كُنت الأكبر بين أشقائي، وكان حريًّا بي أن أحميهم. لكنني أخفقت في ذلك. لقد قطعوا رأس ماريا في الأيام الأولى، ولم يكن في إمكاني أن أتكهن بالهزيمة، أو بأننا سوف نُقتل جميعًا. كان من الممكن أن نكون أنا وخايمي على قيد الحياة، لكننا كنا متغطرسين. لم يكن من حقنا أن نفجع والدينا بخسارة ثلاثة من أبنائهم. لتغفر لنا عائلتنا. شُكرًا لكم.

يعود بيتو إلى مكانه في الخلف. أشار ديفيد إلى النوافذ الزجاجية الملونة قائلًا: «حلَّ الفجر» وعلينا أن نرفع الجلسات. أردت بادئ ذي بدء أن أُعلق على خطاب إيفانيلدو؛ ما من شك في أننا نعيش أوقاتًا أكثر صعوبة من تلك التي عشناها في شبابنا. لننظر إلى عصور الظلام، وإلى الميليشيات وإلى المذابح وكراهية الحضارة. إن الأمر لا يقتصر على ذلك فحسب. لننظر إلى الكوارث المتتالية، والفيضانات العاتية والحرائق التي لا تنتهي، لننظر إلى انتشار الجوع والفقر والعنف. إن على أحفادنا الاستعداد لما هو أسوأ.

ذلك ما قاله ديفيد مُختتمًا، في أجواء كئيبة، الليلة الثانية للمؤتمر.

# (١٠)

أمضيت فترة الصباح أفكر في تلك الرؤوس المقطوعة. أيمكن فصل رأس شخص مات بالفعل عن جسده؟ لا يُمكن أن يكون الهدف من ذلك سوى ترويع الناس. لكن للقيام بذلك، يتعين كشف رؤوس هؤلاء أمام العامة، كما فعلوا في حالة تيرادينتس، أو قطع رؤوسهم أمام الكاميرات، كما يفعل تنظيم الدولة الإسلامية. أما في أراغوايا فقد تم قطع رؤوسهم سرًّا. في فترة ما بعد الظهيرة سألت رودريغيز، في الساحة، عمَّا تقوله الأساطير عن ذلك. أجاب قائلًا إنه بقطع الرأس فإنك، بضربة واحدة، تستولي على حياة وعقل شخص آخر. لقد حافظ السِّلتيون[١] على رؤوس ألد أعدائهم بغمرها في زيت الزيتون. ورفضوا مقايضتها بأي ثمن.

- وفي زمننا هذا؟ كيف تُفسر استخدام المقصلة في الثورة الفرنسية، إذا كانت الأسلحة النارية موجودة بالفعل؟

---

(١) السِّلتيون شعوب هندو-أوروبية استوطنت أوروبا والأناضول واستخدموا اللغة السلتية.

- ترمز المقصلة إلى قطع رؤوس الطبقات المُرَفهة، وليس الأفراد العاديين: كان النبلاء ورجال الدين هم الفئات التي تم قطع رؤوسها. لهذا السبب كان من الضروري أن يتم قطع الرأس على نحو جماعي وفي الساحة العامة.

- لكن في أراغوايا ألم يكن هؤلاء قد ماتوا بالفعل؟

- قال رودريغيز إن قطع رأس شخص ميت بالفعل يحدث كثيرًا في إفريقيا. ويتمثل الهدف من ذلك في الحط من القيمة الإنسانية للضحية، ويُعد ذلك بمثابة رسالة رعب جسدية.

بدأ رودريغيز في تأمل حديثه، ثم أردف: رُبما أخذوا الرأس ليتسنى لهم التعرف على القتيل، فقد كان هناك خلط بين الأسماء الحقيقية والأسماء الحركية. لكن مهما كان السبب، فإن ذلك أمر مثير للاشمئزاز، وإن كان جزءًا لا يتجزأ من ثقافة الجيش البرازيلي، حيث كان يتم عادة قطع الحناجر والرؤوس.

- أتقول إنهم دائمًا يقطعون الحناجر؟ منذ متى؟

- منذ حرب باراغواي[1] التي وُلد من رحمها الجيش البرازيلي الحديث. لم يتفاخر كاشياش[2] فحسب بأنه لم يأسر أي

---

(١) حرب باراغواي، وتُعرف كذلك بحرب التحالف الثلاثي، هي أعنف الحروب في تاريخ أميركا اللاتينية وأكثرها دموية، دارت رحاها بين الباراغواي من جهة وتحالف ثُلاثي ضم الأرجنتين وإمبراطورية البرازيل وأوراغواي. دارت الحرب بين عام ١٨٦٤ إلى عام ١٨٧٠ وخسرت فيها الباراغواي ثُلثي سكانها ومساحات كبيرة من أراضيها.

(٢) لويز ألفيس دي ليما دوكي دي كاشياش (١٨٠٣-١٨٨٠) هو قائد التحالف الثلاثي في حرب الباراغواي. حصل على لقب البارون كاشياش لأدائه المتميز في الحرب.

جندي، بل زعم أن قطع الرؤوس أرخص ولا ينتج منه ضياع رصاصة واحدة. استمرت هذه الممارسة بعد أن تشكلت الجمهورية إلى درجة أن قائد مذبحة كانودوس، وهو العقيد الفيدرالي أنطونيو موريرا سيزار[1]، قد أُطلق عليه لقب قاطع الرؤوس.

سألته: من أين أتيت بكل هذه المعلومات؟

- من الكتب. إن كل شيء موجود في الكتب. أنا لا أخترع أي شيء. لقد قطعوا رؤوس سكان الريف البؤساء في كانودوس، ذلك أنهم كانوا على يقين من الإفلات من العقاب. وهكذا أصبح الإفلات من العقاب جزءًا من ثقافة الجيش. بالمناسبة هل تعلم أن دوق كاشياش لم يكن يُدعى كاشياش ولم يكن من النبلاء؟

لم أكن أعرف ذلك. أوضح رودريغيز قائلًا:

- لقد كان عقيدًا يُدعى لويز ألفيس دي ليما إي سيلفا. حصل على لقب بارون كاشياش لأنه قمع انتفاضة سكان الريف والعبيد في مارانياو وكانوا قد استولوا على مدينة كاشياش. لقد تم قتل اثني عشر ألف شخص في تلك المعركة وحدها.

فكرت في جثتي خورخي وأوزفالداو اللتين تم تعليقهما بطائرة هيليكوبتر ليراهما جميع السكان، ثم قلت: لقد أماط هؤلاء اللثام

(١) أنطونيو موريرا سيزار (١٨٥٠-١٨٩٧) قاد ما يُعرف بالحملة الثالثة على كانودوس بعد إخفاق الحملتين السابقتين. قُتل سيزار في هذه الحملة بعد طعنة في المعدة.

عن رؤوس قُطاع الطرق لوضع حد لأسطورة لامبياو[1] الذي لا يُقهر.

هل أظهروا جثة أوزفالداو في أراغوايا لوضع حد لأسطورته؟ وأسطورة جسده الذي لا يُقهر؟

- قال رودريغيز: ربما، وذلك ما فعلوه بزومبي، فلقد وضعوا رأسه فوق عمود إنارة في ريسيفي حتى لا يعتقد الناس أنه خالد، كما أن تلك كانت هي العقوبة المعتادة التي يحكم بها التاج البرتغالي على كل من يتمرد. وهناك في حقيقة الأمر تفسير آخر، فهل تعلم أنهم في إنجلترا في العصور الوسطى كانوا يقطعون رؤوس المهزومين لمنع أشباحهم من العودة يومًا ما لتطارد الأحياء صارخة من أجل العدالة؟ كان يُطلق على ذلك يوم نهاية عالم الأشباح، فقد كانوا يشعرون بالرعب إزاء الأشباح، وكان الجنود يخشون من عودة رجال حرب العصابات إلى الحياة من جديد.

سألت: لماذا يشير ذلك إلى نهاية العالم؟

هذه المرة أعطاني رودريغيز درسًا آخر لكن من الكتاب المقدس.

---

(١) فيرغولينو فريرا دا سيلفا (١٨٩٧-١٩٣٨) ويعرف باسم لامبياو التي تعني في اللغة البرتغالية «الموقد» أو «مصباح الزيت». يعد أشهر قُطاع الطرق في القرن العشرين. قاد لامبياو فريقًا يتكون من مئة من قطاع الطرق وتحول إلى بطل فولكلوري برازيلي. يُعد المكافئ البرازيلي لبانشو فيلا المكسيكي.

- أسطورة الفناء هي أسطورة عن نهاية العالم، وهي أسطورة الخلاص في الوقت نفسه. تتنبأ الأسطورة بتدمير العالم من خلال سلسلة من الكوارث التي يتمخض عنها ظهور نظام جديد. لقد انتشرت تلك الأسطورة إنتشارًا كبيرًا في العصور الوسطى، ولعل أشهر تجلياتها ما جاء في السفر الأخير من العهد الجديد الذي يُنسب إلى يوحنا. ويعد ما جاء عن الفناء من أروع ما جاء في الأسفار ومن أكثرها رُعبًا. هنا يُهدد الراوي عبدة الأوثان والزناة وكل من يعصي الوصايا المسيحية بعقوبات رهيبة، ثم يروي أحلامًا ورؤى تتنبأ بسبع كوارث رهيبة، تفوق في شدتها الطوفان والأوبئة التي حاقت بمصر، ويتنبأ كذلك بأن ينتهي الكون بوجود مقبرة سداسية تحت إمرة أربع شخصيات مخيفة، يُمثلون فرسان سفر الرؤيا الأربعة، الذين ينشرون الجوع والحرب والموت والدمار والأوبئة.

- علقت قائلًا: يبدو ذلك وكأنه فيلم رعب.

- الأدهى من فيلم الرعب أن هناك آية في سفر الرؤيا تقول:

«وفي تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه، ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم»[1].

(١) الآية ٦ من الإصحاح التاسع من رؤيا يوحنا اللاهوتي. وتحيل الآية إلى آيات سابقة يُطلق فيها الشيطان حشدًا من الشياطين لتعذيب عبدة الأوثان. وقد قارنت هذه الآيات قوة العذاب بلدغة العقرب، حيث تكشف الآيات عن أن لدغات العقرب ستكون مؤلمة جدًا إلى درجة أن الضحايا يرغبون، بلا طائل، في الموت.

- هل يحدد الكتاب المقدس تاريخًا لنبوءة الرؤيا؟

- نعم، إنه يشير إلى ألف سنة من سوء الطالع حتى يبزغ النظام الجديد، أو أورشليم الجديدة، في بعض الروايات. لهذا السبب يُطلق على الحركة المسيحانية أو الخلاصية، تلك التي باركها الراهب جوسيه ماريا، اسم الحركة الألفية.

- قلت مُتندرًا: لقد مر أكثر من ألفي عام منذ زمن يوحنا اللاهوتي، ولم ينتهِ العالم.

- قد يُجادل البعض فيقول إن ذلك قد حدث بالفعل، وأن نهاية العالم كانت الحرب العالمية الأولى، أو الإنفلونزا الإسبانية. لكن العالم لم ينتهِ، فحدثت الحرب العالمية الثانية، والمحرقة، وهيروشيما. ولم ينتهِ العالم كذلك، فحدثت واقعة تشيرنوبيل، ثم جائحة كوفيد ولم ينتهِ العالم.

- علقت: على هذا النحو الذي تسير عليه البشرية فإن نهاية جديدة للعالم ستحدث لا محالة.

- قال رودريغيز: بالتأكيد. ثم تأمل قبل أن يصدر حكمه:

- لكن العالم لن ينتهي.

# (١١)

مرت الظهيرة، ولم يتبقَّ سوى ساعتين على استئناف المؤتمر. أثار انفعال سيماو اهتمامي. سألت رودريغز: كيف تفسر أن بعض الصبية والصبايا الذين لم يكونوا حتى في حاجة إلى الاختباء، كما هو الحال بالنسبة إلى سيماو، تركوا كل شيء، حتى الوظائف والجامعات ليمضوا إلى الأدغال؟

- لقد غادروا لأن الحزب استدعاهم. لقد سمعت ما قاله أوزفالداو، كانت كلمة الحزب مقدسة.

- اعترضت قائلًا: لم يُرغمهم أحد على ذلك، وكان في إمكانهم الرفض.

- من سيرفض؟ إن ما فعلوه كان قطيعة مع أسلوب حياة كامل، فضلًا عن أن ما فعلوه كان إقرارًا بقيمة النضال، وإظهارًا للثقة بالحزب.

- ألم يدفعهم إلى ذلك الرغبة في المغامرة؟

- أقر رودريغيز بذلك أيضًا: يجد صبي يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا نفسه فجأة على متن طائرة متجهة إلى الصين في مهمة سرية! إن طعم المغامرة يسلب المرء كل قدرة على التفكير. لكل ألم نُلقِ نحن الأطفال في سن الرابعة عشرة الطلاء على الجدران؟ لقد أصبحنا، أنا وأنت وجميعنا، من خلال النشاط السياسي بشرًا، وهكذا جاء خيار الكفاح المسلح على نحو طبيعي.

- كيف تُقَيِّم دور المثقفين؟ لا ريب أنهم تأرجحوا بين هذا وذاك، ولا تنسَ أننا كنا في خضم معجزة اقتصادية!

- أعتقد أن الأمر أصبح هاجسًا بالنسبة إلى سيد. هل تعرف أنه أطلق على كتابه «أُمرت أن أناضل»؟

- قلت: لعل المعنى هو النضال السياسي، لا إطلاق النار.

- أجاب رودريغيز: تأمل تلك الهزائم التي عاشها طوال حياته ثم يعقب ذلك انتصار فيديل[1] في سييرا مايسترا، حيث أطاح ستة من أفراد حرب العصابات بالدكتاتورية وطبقوا النظام الاشتراكي في الأمريكيتين. لقد كان لذلك تأثير عميق في قُدامى المحاربين في الحزب، وزاد الانقلاب العسكري من شعورهم بضرورة التحرك.

---

(١) فيديل كاسترو (١٩٢٦-٢٠١٦) ثوري وسياسي كوبي حكم كوبا في الفترة من ١٩٥٩ حتى عام ٢٠٠٨ (كان رئيسًا لوزراء كوبا من ١٩٥٩ إلى ١٩٧٦ ثم رئيسًا لها من عام ١٩٧٦ إلى ٢٠٠٨).

- قلت متأسفًا: يا للعار، لقد أُزهقت العديد من الأرواح، لكن ماريو العجوز كان لَمَّا يزل يطلب منهم إرسال المزيد من الشبان الأشداء والمهيئين أيديولوجيًّا.

- أضاف رودريغيز: كما أنهم ينبغي أن يكونوا على استعداد للتضحية بأرواحهم، على حد ما جاء في الرسالة الموجهة إلى إدارة الحزب. لقد ذكرني ذلك بأسطورة المينوتور، ذلك الوحش الذي نصفه رجل ونصفه ثور ويتغذى على التهام موجات متلاحقة من الشباب. كانت متاهة ماريو العجوز هي الأدغال بتعرجاتها ومجاريها الملتوية التي ضل فيها المسلحون الطريق حتى ابتلعهم القمع، وسقطوا سُدًى. يا للعار!

- لست أفهم ذلك، ماذا تعني بأنهم سقطوا سُدًى، وهل هناك موت لا يضيع سُدًى؟

- في كويلومبو دوس بالماريس سقط الآلاف قتلى، لكنهم لم يضيعوا سُدًى، فمنهم ولدت هوية السود اليوم. ذلك الرجل الأسود المعتز بنفسه. ذلك ما أسميه الموت الخلاق. إن ذلك ليس من اختراعي، ففي الأساطير تعد الوفاة نتيجة تضحية أمرًا إبداعيًّا، فذلك يُؤدي دومًا إلى ظهور شيء جديد، أو إله جديد، أو صنف نباتي جديد.

- لقد أضحت حرب العصابات في أراغوايا كذلك رمزًا هامًّا يُقارب الأسطورة.

- ما حدث هو أنه تم إضفاء نوع من الأسطورة، أو صبغة من التضحية على ما حدث، وكلا الأمرين ينزع الصفة السياسية عن الاثنين، وما ظل هو مجرد ضرورة تبرير قتال لم يكن ضروريًّا.

- ما معنى القتال الضروري؟

- في كويلومبو دوس بالماريس، كان على المقاتلين الدفاع عن أنفسهم، وفي غيتو وارسو[1]، كان لا مفر من الرد. لكن حرب العصابات في أراغوايا لم يكن لها ضرورة فحسب، بل كانت كذلك تهورًا وخطأً إستراتيجيًّا جسيمًا.

- أجبته: لعلك تقول ذلك لأننا نعرف الآن كيف انتهى الأمر، لكنهم لم يكن لديهم أي وسيلة لمعرفة ذلك. تقول إنه كانت تعوزهم الحكمة، أما أنا فأقول إنه مع الحكمة لا يمكنك القيام بثورة.

- أوافقك على أنه لا توجد ثورة حكيمة. بل أمضي إلى أبعد من ذلك، فبدون الشغف بشيء ما لا يمكن ممارسة السياسة، لكن مشروع حرب الشعب الطويلة قد ولد على نحو خاطئ. لقد تبنى مؤتمر الحزب الذي أقر الكفاح المسلح عام ١٩٦٦ نموذج حرب الشعب، والمنهج التآمري، وفي

(١) كان غيتو وارسو، أو منطقة إقامة اليهود في وارسو، هو أكبر غيتو أسسه النازيون إبان الحرب العالمية الثانية والمحرقة. تأسس الغيتو عام ١٩٤٠ وضم حوالي ٤٦٠,٠٠٠ يهودي في منطقة لا تتعدى مساحتها ٣.٤ كلم٢.

ذلك تناقض كبير. وفضلًا عن ذلك فقد تم تصور المشروع على أساس افتراضات خاطئة، مثل حشد الناس في بيكو دو باباغايو، وهي أرض للمغامرين والغرباء والناس الذي يعودون بعد موسم الجفاف وأولئك الذين لا جذور لهم من الرُّحَّل.

- أنا لا أوافق على ذلك. لقد كان هناك ناجون، لكن من كانوا هناك كانوا أشخاصًا أشداء وشجعانًا. ذلك ما يذكره سيد في دفاتره.

- قال سيد نفسه في إحدى المقابلات إنهم كانوا جاهلين ومتخلفين، كما كان معظمهم أميين. وقد اعترف في تلك المقابلة أنه لا يعرف سوى النزر اليسير عن طريقة تفكير الناس الذين يعتمد عليهم. وعلاوة على ذلك فقد ذهب بومار إلى الصين للتشاور مع القادة، فنصحه شوين لاي[1] نفسه بعدم شن حرب العصابات.

- لكن ألم تكن الصين هي من دربت هؤلاء؟

- كان ذلك برنامجًا للمتمردين من العديد من البلدان، ولم يكن مُخصصًا لمقاتلي أراغوايا وحدهم. الواقع أن شوين لاي رأى أن الوقت لم يكن ملائمًا. وعند عودته حذر بومار القادة، وقال إن شن الحرب يُعتبر انتحارًا جماعيًّا. لقد قال بالحرف

(١) شوين لاي (١٨٩٨-١٩٧٦) دبلوماسي ورجل دولة وثوري صيني شهير كان أول رئيس وزراء جمهورية الصين الشعبية من عام ١٩٥٤ حتى وفاته عام ١٩٧٦.

الواحد تلك العبارة. لكن تحذيره كان هباءً منثورًا، وانتهى الأمر بتعرضه للانتقاد. تم كذلك انتقاد ثلاثة ممن تدربوا في الصين عند عودتهم، كما تم تخفيض رتبهم، وكان من بين هؤلاء تارزان دي كاسترو، وهو أحد الذين تعرف عليهم الأمريكيون وصوروهم في كراتشي.

اعترفت بأنه كان من الصعب عليَّ أن أفهم قادة حرب العصابات من أمثال سيد وجواكيم وفيليو ماريو. كان من الممكن أن يكون كلٌّ من ماريو وسيد جَدَّين لهؤلاء المتمردين بسبب فارق العمر. كما أنه كان عليهما أن يتمتعا بالحكمة مقارنة بمن هم أقل خبرة. قال رودريغيز: أنا كذلك أجد صعوبة في فهم ذلك، ولعل التفسير الوحيد الذي يمكنني أن أجده مُلائمًا هو أن هؤلاء قد راهنوا ضد التاريخ، كان ذلك رهانًا نهائيًّا على ثورة كانت دائمًا تفلت من بين أيديهم. لعلك سمعت ما قاله العجوز ماريو. الواقع أن إيماني بالاشتراكية لا يزال ثابتًا لا يتزعزع، فالثورة الاشتراكية هي جوهر حياة مُؤسسي الحزب، بعد أن أمضوا عقودًا منشغلين بأمور أخرى. لقد كان هؤلاء القادة القدامى في حاجة إلى استعادة معنى الحياة التي افتقدوها. لقد وجدوا ذلك في الملحمة الصينية، لكنهم لم يفهموا أبدًا المفهوم الحق لحرب الشعب الطويلة. إن الشعب بأسره ينخرط في حرب الشعب، كما أن الحياة اليومية تخضع لمتطلبات الحرب. لقد كان ما فعلوه حربًا باسم الشعب، وليس حرب الشعب. لقد روجوا لأنفسهم على أنهم طليعيون.

- نحن أيضًا اعتبرنا أنفسنا طليعة البروليتاريا.

- لقد تصرفنا وفق ما يُمليه علينا الهوى، أما هم فلم يفعلوا ذلك؛ لقد كان ذلك عقيدة بالنسبة إلى سيد وجواكيم، لقد تجاوز ما آمنوا به فعل الإيمان ليصبح بمثابة ديانة.

- أنا لا أتفق معك. إنك تختزل كل شيء وترده إلى نواحٍ سيكولوجية، كما لو أن السياسة لا وجود لها، ولا الأيديولوجية. إنك تقلل من شأن حرب العصابات في أراغوايا، رغم أن الجيش لم يهزمنا إلا من خلال الإرهاب، ومن خلال حشد ما ينيف على عشرة آلاف جندي. ألا تعتقد أن هناك قدرًا من المجد في الهزيمة أمام مثل تلك القوات غير المتكافئة؟

- نعم، من الناحية النظرية. إن الأمر يتوقف على كيفية حدوث الهزيمة. لقد كان هناك نوع من المجد في الانتحار الجماعي للمكابيين[1]، وكذلك الحال في بالماريس، وربما في كانودوس، لكن ليس في أراغوايا. لقد تمت مُطاردة المتمردين وقتلهم الواحد تلو الآخر. علاوة على ذلك، فلم يكن هناك عشرة آلاف جندي. إن تلك مبالغة. الواقع أنني لست أقلل من شأن ما حدث، لكنني أود أن أوسع من نطاق التحليل باستخدام مفاهيم لم نكن نعرفها في ذلك الوقت. مثلًا أحاول استخدام الأساطير والمعتقدات في التحليل.

---

(١) المكابيون مجموعة من المتمردين اليهود الذين أسسوا السلالة الهاسمونية التي حكمت منطقة يهودا من ١٦٧ ق.م. إلى عام ٥٣٧ ق.م.

- هل تعتقد أن ذلك يفسر التضحية التي قام بها هؤلاء؟

- ذلك ما أعتقده. إن ذلك أمر نموذجي في الأديان المختلفة. إن كل دين يتطلب تضحيات، قرابين للآلهة. في هذا الدين كان الناس يُضفون على قادة الحرب صفة الكهنة الذين يتمتعون بسلطة اتخاذ القرار، كما كان يتم تقديم الشباب كقرابين يتقبلون مصيرهم المحتوم.

- اللعنة! أيفسر ذلك ما قاله أوزفالداو من أنه عندما ضاع كل شيء، لم يرغب أحد في التراجع؟

- بالضبط! إنها طقوس القرابين الجماعية. وإنكار هذه الطقوس يعني إنكار كل معاني الحياة. أضف إلى ذلك بالطبع الخوف من أن يبقى المرء وحيدًا في الأدغال.

سألته مذهولًا وغير مقتنع، إن كان قد قرأ مذكرات العجوز ماريو.

- أجاب رودريغيز: نعم لقد قرأتها. إن أسلوبها ملحمي، فلقد كُتبت للأجيال القادمة. لقد وصف بداية عصر تاريخي جديد. كانت رؤية للانتصار الواهم؛ فقد كان رفاقه يسقطون وهو يمتدحهم الواحد تلو الآخر، ولم يُقر في أية مرحلة بعدم جدوى المشروع، ولم يُعرب عن الندم مُطلقًا. لم يُفكر في ضرورة الحفاظ على الأرواح. أعتقد أنه كان في حالة من النشوة، فقد حقق الهدف الذي كان يصبو إليه طوال حياته.

لم ينسَ أن يصف كذلك آفات الغابات والبعوض والجراد، وهو ما يذكرني بمذكرات تشي[1] في بوليفيا، فهو كذلك اشتكى من الجراد. إن هذا التركيز في تدوين اليوميات، حتى في المواقف العصيبة، لا يمكن أن نفسره إلا من خلال اقتناع هؤلاء القادة بأنهم كانوا يُسجلون لحظة ميلاد عصر جديد.

- عن ماذا تحدَّث أيضًا؟

- لقد تحدث كثيرًا عن الطعام: عن ماذا تناولوا في ذلك اليوم، وماذا تناولوا في اليوم التالي. لقد ذكرني ذلك بمذكرات بريمو ليفي[2] في معسكرات العمل القسري حين كان الناس لا يفكرون أو يتحدثون إلا عن الطعام. كان سيد كذلك شخصًا يهذي، فهناك مقطع في المذكرات يصف فيه العجوز ماريو سيد وهو يقفز مثل طفل صغير في حفل غنائي وسط الأدغال.

- لا يمكن أن يكون من السهل على العجوز ماريو أن يلتقي الأطفال، كما أنه لم يكن يتوقع قدومه.

- حسنًا، لقد كنت متأكدًا من أنه سوف يأتي. إنه ذلك الرجل الذي ضحَّى بحياته من أجل الثورة، فهو يرى نفسه رواقيًّا وشهيدًا، وذلك أمر جلل.

---

(١) تشي جيفارا (١٩٢٨-١٩٦٧) ثوري ماركسي أرجنتيني. كما كان مُؤلفًا ومُنظرًا عسكريًّا ومُشاركًا في حرب العصابات.

(٢) بريمو ليفي (١٩١٩-١٩٨٧) كاتب إيطالي له عدد من المجموعات القصصية والمقالات، فضلًا عن رواية واحدة وبضعة دواوين شعرية.

كما أن ماريجيلا كذلك كان مستعدًّا لتقديم كافة التضحيات الشخصية الممكنة.

- قال رودريغيز: إن الفرق يكمن في أن مُقاتلي أراغوايا كان لديهم نموذج وهدف محدد، على حين كان ماريجيلا يتصرف دون أن يستند إلى أي أساس نظري.

- أجبته بأن هذا ليس صحيحًا. فماذا عن «دليل حرب العصابات الحضري الموجز»؟

- إن ذلك ليس أكثر من مجموعة من الملاحظات التي دونها في إحدى المناسبات التي كان عليه فيها أن يُسجن. لم تكن هناك نظرية، بل بضع أمثلة لثورات، ونصائح عن كيفية السطو على مصرف.

- مرة أخرى تنتقص من الأمر... لم يكن ذلك مجرد دليل ملاحظات، فلقد حقق الدليل شهرة عالمية!

- لقد تسبب ماريجيلا كذلك في الكثير من الضحايا التي لا مبرر لها. لكن ماريجيلا ولاماركا قد أثارا إعجاب الآلاف من الناس، وحظي الاثنان بدعم من جميع أنحاء البلاد، ومن جميع الطبقات الاجتماعية. لكن ما سبب ذلك؟ لم يكن هؤلاء يستهدفون النصر، فذلك لم يكن مُمكنًا، ولكنهم أرادوا تشجيع الناس على الاحتجاج. كان ذلك أمرًا عفويًّا جدًّا، كما كان فوضويًّا كذلك، إلى درجة أنه لم تكن هناك

لجنة مركزية، ولم يطلب أحد الإذن بالقيام بما قام به. كان متمردو حرب العصابات في أراغوايا يتصرفون في الخفاء، فلقد اختاروا الاختفاء بأنفسهم كتكتيك للتنفيذ. وقد انتهج القمع نفس الفلسفة. وفضلًا عن ذلك فلم يضع المتمردون حدودًا لأي متر مربع حرروه، وباستثناء كمين أو آخر قاموا به، فإنهم كانوا دائمًا في حالة تراجع، وكانت تلك كارثة كبيرة. لقد خلقوا سردية ملحمة ثورية، ووصفوا سقوط البعض كما لو كان موتًا بطوليًّا، أو كما لو كان سيرة قديس سار على درب حرب العصابات. لكن ما حدث كان كارثة ومأساة. لا أقول إنهم كلهم ماتوا عبثًا، ذلك أن أشباحهم تعود. لقد عادوا بالفعل ليطاردوا الأحياء.

ذلك ما قاله رودريغيز، وقد وافقته على ما قال.

# (١٢)

تنعقد الليلة الأخيرة من المؤتمر. يظهر المزيد من المختفين من أراغوايا، ومن بينهم إليسا وتوكا، وكلاهما نحيلان. لا بد أنهما سمعا نداء العجوز ماريو. كما ظهر صبيان هما بياوي ودودا. لم يحضر بورجيس.

كشف ذلك عن عار المساومة على الإقرار بالذنب. لقد خانني الرجل وخلت أنه ليس في وسعه أن يُواجهنا. لم يحضر أماريلدو كذلك. سألت رودريغيز عنه فأجابني: لا ريب أن الرسالة الشفاهية التي أرسلناها لم تصل إليه.

يعلن ديفيد أنه بما إن تلك هي الليلة الأخيرة، فإنه من الضروري التصويت على المقترحات المقدمة وغيرها من التوصيات التي يمكن تقديمها. ترفع هيليني يدها وتسأل:

- ماذا يمكننا أن نفعل إن كنا مجرد أشباح؟ لقد دار ذلك بخلدي منذ أمس، وأود أن يفسر لي أحدكم ما يمكننا وما لا يمكننا عمله.

لم يرد أحد، وبعد حوالي دقيقة طلب رودريغيز الكلمة وصعد المنبر. كان ما قاله طويلًا.

- يعرف الكثير منكم شغفي بالفلسفة. سأسعى هنا للرد على هيليني. أرى أنه لكي نعرف ما يمكننا فعله، علينا أن نعرف من نحن. الملاحظة الأولى هنا هي ذات طبيعة تجريبية: نحن أشباح محرومون من الخصال الجوهرية التي يتمتع بها الأحياء، لكننا لسنا مُجرد هياكل عظمية، حيث نمتلك تلك الخصال التي كانت لدينا أثناء حياتنا، كما أن لدينا ذلك الغلاف الأثيري الذي يحفظ ظهورنا عند الموت. يكفي ذلك ليجعلنا متفردين في عالم الأشباح. نحن أيقونات لذواتنا في الحياة، إننا نُجسد المظهر غير المادي لشخصية أي إنسان، وصفاته العقلية، وجانبه السياسي، وتاريخه، وعلاقاته العاطفية. ماذا نستطيع أن نفعل؟ يمكننا أن نفعل الكثير. إن إمكاناتنا لهائلة ذلك لأننا وصلنا إلى الحالة العقلية التي تمكننا من أن نستغني عن المادة. إنه في مقدورنا أن نتجاوز عقبات لا يمكن للأحياء أن يتجاوزوها، كما إنه في وسعنا أن نجتاز مساحات شاسعة لا يمكن تخيلها. وفضلًا عن ذلك فإنه لا يساورنا قلق بشأن المأكل والملبس والأشياء اليومية الأخرى، ما يسمح لنا بتحقيق روحانياتنا الحقة.

أظن أنه ليس هناك شك في هذه الخصال. ما أخشاه هو أنه لا وجود لنا بالنسبة إلى الأحياء. لا شيء، لا شيء على الإطلاق. لكننا

موجودون لأنفسنا، لا للآخرين، كما لو كنا مجرد بنات أفكارنا. ذلك ما كان سيقوله إسبينوزا[1]، فيلسوف الحداثة الكبير. إنه يرى أن جوهر الإنسان إنما يكمن في وحدة الجسد والروح. إن كل نشاط بشري، سواء جسدي أو عاطفي، أو تأملي، ليتوقف عند موت الجسد، وعندها لا يبقى شيء، ناهيك عن تلك الروح الهائمة. بمعنى آخر، فنحن غير موجودين، بالنسبة إلى إسبينوزا.

تتعالى الأصوات في جميع أنحاء القاعة إلى الحد الذي يقطع حديث رودريغيز. تمر دقيقة، وبعدها يرفع يده مطالبًا الحضور بالصمت. يستأنف حديثه قائلًا:

- لتهدؤوا أيها الرفاق، اهدؤوا. نحن هنا مئتان وخمسة من المختفين، لذلك فنحن موجودون على نحو ما. علاوة على ذلك، فإنه يمكننا أن نرى أنفسنا، وبالتأكيد سوف يرانا أولئك الذين يخشوننا، تمامًا كما شاهد أولئك الذين كان لهم حساب لتصفيته، شبح والد هاملت القتيل. لكن الواقع أنه ما من فيلسوف قد أولى اهتمامه بالمختفين، لا من بين اليونان ولا من بين المحدثين. أقترح أن نفعل نحن ذلك. لا ينبغي أن نتخلى عن النضال من أجل تحديد موقع رفاتنا، أو من أجل إقامة نصب تذكاري لنا، ولا ينبغي كذلك أن نتوقف

---

(١) باروخ إسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) من أشهر فلاسفة التنوير. يُعد أحد أهم الفلاسفة في بواكير فترة المعاصرة المبكرة. كان له تأثير كبير في الفلسفة الرواقية، وكذلك على ميكيافيلي وديكارت وهوبز.

عن إهدار دم الفاشيين، فذلك هو صميم عملنا. لكن إن قُمنا، إضافة إلى ذلك، بوضع الأسس الفينومينولوجية[1] للاختفاء السياسي، فإن هذا المؤتمر يكتسب حينئذ بُعدًا استثنائيًّا.

تسود همهمة تدل على الموافقة. لقد أذهلنا الخطاب. من كان يتخيل أننا، بعد أن قطعوا رؤوسنا ونفونا من عالم الأحياء وعالم الأموات، سنظل قادرين على المساهمة الفلسفية؟

يُعاود رودريغيز الحديث من جديد:

- أقترح عليكم أن نبدأ بالتمييز بين الروح والنفس، ذلك أن الفلسفة تستلزم الاستخدام الدقيق للكلمات. الروح، بالنسبة إلى اليونان، هي بمثابة البعد الحسي لشخصيتنا ومشاعرنا وعواطفنا، في حين أن النفس هي جوهرنا العقلي، الذي يتكون من قيم كل شخص وميراثه الفكري. لذا فنحن روح ولسنا نفسًا. هناك طريقة أخرى للتمييز، فالروح تسكن في ذاكرة من عرفونا، ولها نفس الوجود المحدود بحياة هؤلاء الناس، ولذا فإنها تُمحى عندما يموتون أو يفقدون ذاكرتهم. الروح إذن هي حضورنا في اللاوعي

---

(١) الفينومينولوجيا أو فلسفة الظواهر هي الدراسة الفلسفية للموضوعية والواقع كما يُعاش على نحو ذاتي. تسعى هذه الفلسفة إلى البحث عن السمات العامة للوعي، على حين تتجنب وضع الافتراضات عن العالم الخارجي، بهدف وصف الظواهر كما تحدث.

الجماعي للجنس البشري. لكن ما هو اللاوعي الجماعي؟ إنه مجموعة المعارف التي تشكلت في الأيام الأولى للجنس البشري والتي نمتلكها نحن جميعًا. يؤكد عالم النفس يونغ[1]، وكان مُعاصِرا لفرويد[2]، أننا نولد بهذه المعرفة، وهي سمة ثقافية للجنس البشري، وليس لفرد دون آخر. ويمتد اللاوعي الجماعي إلى أجيال، أما الذكريات الفردية فليست كذلك. يتجلى اللاوعي الجماعي لدى يونغ في معتقدات وسمات رمزية أطلق عليها اسم النماذج الأصلية. ويكمن أصل ذلك في الأساطير التي ابتكرها من عاشوا في الكهوف، لشرح ألغاز الطبيعة وأصل الأمراض. وهكذا اندمج الإنسان في شبكة من التمثيلات التي نسجها هو بنفسه. وجد يونغ تمثيلات لنفس النماذج الأصلية في أساطير الشعوب المختلفة، سواء كانت «بدائية» أو «حديثة». لعل الأكثر حضورًا منها كان الأم الحامية، التي تشفع لابنها مع والده، أو التي تُغذي الأرض لتوفير محاصيل وفيرة، أو التي تحمي الصيادين مثل ليمانجا وهي سيدة المياه العظيمة لدى اليوروبا.

---

(١) كارل غوستاف يونغ (١٨٧٥-١٩٦١) عالم نفس ومحلل نفسي سويسري أسس علم النفس التحليلي. كان لعمله تأثير كبير في حقول معرفية متعددة منها الأنثروبولوجيا والأدب والفلسفة وعلم النفس.

(٢) سيغموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩). عالم نفس نمساوي. يعد الأب الروحي للتحليل النفسي، وهي طريقة إكلينيكية ترمي إلى تقييم وعلاج الأمراض النفسية.

وهناك نموذج أصلي آخر شهير وهو نموذج البطل الشجاع، الذي يكشف عن نفسه بآلاف الطرق، مُتغلبًا على العقبات. يهزم البطل الشجاع الشر، ويُنقذ الناس، وينبئ بمستقبل مشرق. هناك، في حقيقة الأمر، عدد لا يُحصى من النماذج الأصلية التي تعبر عن مخاوف ورغبات الإنسان البدائي: الأب الطاغية، والعجوز الحكيم، والخائن الحقير، والهائم على وجهه، وزوجة الأب الشرسة التي تجسد كافة أنواع السموم، والشهيد الذي يُضحي بنفسه من أجل شعبه مثل جان دارك[1]، والمُخَلِّص مثل المسيح وموسى وبوذا، والغول، ذلك الوحش الذي يلتهم الناس ويستحوذ على كل شيء. كل هؤلاء يظهرون في جميع الأساطير والحكايات الشعبية. هناك كذلك روايات أسطورية تتجذر في ثقافات الشعوب المختلفة، وكأنها روايات نموذجية، مثل قصة الخروج إلى أرض الميعاد، وقصة المقاومة حتى آخر رجل، وقصة اللعنة التي تحل بشعب ما. ولهذه كلها معانٍ جماعية. وحتى الديالكتيك الماركسي فإنه يُمكن النظر إليه باعتباره رواية أسطورية يُمثل فيها الغول الوحش الرأسمالي الذي يتغذى على فائض قيمة العمال. ومع ذلك فإن يونغ لم يعثر البتة على نموذج أصلي يُجسد المختفين السياسيين، وذلك هو الفراغ الذي يتعين علينا أن نملأه.

---

(١) جان دارك (حوالي ١٤١٢-١٤٣١) تعد القديسة الراعية لفرنسا. دافعت عن الأمة الفرنسية إبان حصار أورليان.

لا أظن أن هذا ممكن، نظرًا إلى أن الاختفاء السياسي، كتجلٍّ من تجليات الخيال الاجتماعي، يعد ظاهرة تخص عصرنا، فقد ظهرت ما بعد يونغ. لقد كنا حتى الآن موجودين في الذكريات الزائلة لأولئك الذين عرفونا، وفي ذكريات مانغويرا. ومع ذلك، فعندما يموت هؤلاء الذين عرفونا، وعندما تتغير ثقافة مانغويرا، فإننا نختفي من الوجود. كيف يُمكننا أن نمنع انقراضنا النهائي؟ كيف يمكننا أن نمحو الفظائع التي اُرتكبت في حقنا؟ إن علينا أن نخلق نموذجنا الأصلي، أي النموذج الأصلي للمختفين سياسيًّا.

أعتقد أنه يجب علينا، في عالم النماذج الأصلية هذا، أن نعمل على تطوير أسس فينومينولوجية تتصل بالمختفين السياسيين، بما يضمن ديمومتنا عبر الزمن.

يتوقف رودريغيز برهة كما لو كان يُنظم أفكاره. يسأل أحد الأشخاص من الجانب الخلفي من القاعة، حيث كان متمردو شعب أراغوايا مجتمعين:

- الرفيق رودريغيز: إذا كانت الروح هي جوهرنا العقلي المتحرر من متاعب الحياة، فهل من الممكن أن يكون بعض الرفاق من أراغوايا قد تغيبوا لأنهم لم يتمكنوا من تحرير أنفسهم؟ هل في وسع الروح أن تتغلب على كل شيء؟
- من المحتمل أنهم عانوا من اضطراب ما إلى درجة أن أرواحهم لم تكن قادرة على تحرير نفسها - لكن ما سبب ذلك؟ لست أدري. قد يرجع ذلك إلى انهيار تلك الأساطير

التي صاحبتهم أثناء حياتهم: أسطورة الثورة، أو أسطورة الاشتراكية، وقد يكون ذلك جرَّاء صدمة تفشي الفاشية. وقد يرجع ذلك إلى الطريقة التي ماتوا بها. في قبيلة توبي غوراني لا يمكن أن يُقام طقس الإعدام إلا لمن تم أسره وهو يقاتل حتى تنتقل شجاعته إلى آسريه. إنها نفس أخلاق الساموراي[1]: الموت أثناء القتال. أليست تلك هي الطريقة التي مات بها الكثيرون؟ لكن البعض استسلم تحت وطأة الجوع، بينما أصابت رصاصة جبانة آخرين في الظهر.

ينتظر رودريغيز هنيهة كما لو كان ينتظر ردًّا. لا يوجد أي رد، ويتنحى عن المنبر. يتردد صوت الهمهمة في الصحن المركزي الكبير. تمر دقيقة واحدة، اثنتان، ثلاث. ساورني إحساس بأن هناك شعورًا بعدم الارتياح يخيم على الجلسة العامة، وبالعجز أمام جسامة المهمة التي اقترحها رودريغيز، أو ربما بالخوف على من لم يحضروا من أراغوايا.

(١) الساموراي طبقة من النبلاء المحاربين اليابانيين. كان لهم تقدير كبير في المجتمع الياباني ابتداء من أواخر القرن الثاني عشر حتى أواخر ١٨٧٠.

# (١٣)

نحن الآن في اللحظات الأخيرة لمؤتمر المختفين، وقد لا يسير أمر ما على ما يُرام. تزداد الهمهمة وتتحول إلى ضجة. يواصل ديفيد ترؤسه للجلسات طالبًا الصمت، لكن استعادة الهدوء يستغرق وقتًا طويلًا. يقترح تشكيل لجان عمل لمناقشة المقترحات ويطلب من رودريغيز تولي ذلك، ويعطيه مهلة ساعة واحدة. أحصيت عشر لجان عمل انتشرت عبر القاعة. بقيت أنا ورودريغيز نراقب من الخارج.

بعد ساعة، جال رودريغيز عبر اللجان واستمع إلى ما يقولونه. ساعدته في تصور ما قالوا، وبعد ذلك انزوينا في ركن، وتولى رودريغيز بمساعدتي تنظيم الأفكار التي جمعها من خلال الذاكرة. بعد مرور نصف ساعة أخرى، دعا ديفيد، بإشارة منه، إلى انعقاد الجلسة العامة، وتحدث رودريغيز:

- أيها الرفاق! لن أعرض هنا بالتفصيل مساهمة كل مجموعة، لكن يكفي القول إن المساهمات كانت كثيرة. وبناء على ما تم

مناقشته، فإني أقترح الأسس التالية لفينومينولوجيا الاختفاء السياسي:

الاقتراح الأول: نحن أموات لا يدرك وجودنا أحد. إننا كائنات عبرت حدود الموت، لكن ذلك العبور إلى الجانب الآخر لم يكتمل لأننا حُرمنا من الطقوس الاجتماعية للدفن.

الاقتراح الثاني: على الرغم من أننا غير مرئيين بالنسبة إلى البشر العاديين، فإننا نرى الأشباح الأخرى، وهي كذلك ترانا. كما يرانا أولئك الذين يخشوننا بسبب الجرائم التي ارتكبوها في حقنا.

الاقتراح الثالث: أن لدينا مطالب جماعية مستمدة من مصيرنا المشترك، ومن أخلاقنا، وأشد تلك المطالب إلحاحًا تحديد مكان رفاتنا والتعرف عليها لدفنها.

الاقتراح الرابع: لأننا ذرعنا اللامكان لردح طويل من الزمن، ولأننا شهدنا عددًا لا يُحصى من الفظائع ومن الصراع بين الخير والشر، فقد اكتسبنا حكمة سياسية وطاقة روحية لا تُضاهى.

الاقتراح الخامس: نحن لسنا مجرد ضحايا أبرياء لإساءة عرضية من جهاز الشرطة، بل نحن ناشطين تشربنا حتى النخاع فكر التحرر، ونحن ننتمي إلى مختلف الفئات الاجتماعية وقد اختفينا على يد جهاز دولة معقد بسبب ما نحن عليه.

الاقتراح السادس: نحن نُشكِّل مع المختفين سياسيًّا من كل الجهات ومن كل الأوقات، نموذجًا أصليًّا جديدًا، يُجسده ذلك الناشط السياسي الذي اختطفه عملاء الدولة الإرهابية، وحُرم من كل اتصال بالعالم الخارجي، وتعرض للتنكيل ثم القتل، وتم إخفاؤه لإخفاء الجريمة التي كان هو ضحيتها.

الاقتراح السابع والأخير: أننا نرمز كنماذج أولية إلى بحث الإنسان المتواصل عن المدينة الفاضلة، رغم هشاشته الجسدية وضعفه أمام بطش الدولة الإرهابية التي تقرر من يمكنه أن يحيا ومن يجب أن يموت.

يتنحى رودريغيز عن المنبر. ساد صمت طويل. كان خطابًا جميلًا تأثرنا به جميعًا.

بعد ذلك وافقنا على اقتراحات ذات طبيعة عملية ترمي إلى استعادة رفاتنا، وإنشاء نُصب تذكاري للمختفين سياسيًّا، وإلغاء العفو عن المتهمين بارتكاب جرائم ضد الإنسانية، كما وافقنا على اقتراح يدعو إلى مناقشة واجتثاث الفاشية.

حددنا موعدًا لعقد المؤتمر الثاني بعد عامين من الآن. لكن لماذا عامان وليس عام واحد؟ حتى نتمكن من الإعداد لذلك على نحو أفضل. كان الهدف في البداية هو المؤتمر نفسه، أما بالنسبة إلى المؤتمر الثاني فقد اخترنا كموضوع رئيسي الأشكال المختلفة لتجليات النموذج الأصلي للمختفين سياسيًّا، لا سيما في المناطق الريفية النائية.

تم الاتفاق على أن تبدأ المؤتمرات دائمًا في الأول من مايو من السنوات الزوجية، على أن تُعقد دائمًا في الكاتدرائية بعد انتهاء القداس الأخير. لم تعد هناك حاجة إلى استدعاء الناس. خطر لي إنشاء تقويم خاص بنا يكون فيه الأول من مايو بداية التقويم الفلكي. تم انتخاب لجنة تنظيمية للمؤتمر الثاني تتكون من خمسة أعضاء لست أنا أو رودريغيز من بينهم. ولدهشتنا، كان من بين الخمسة، ثلاثة شُبان شاركوا في حرب العصابات في أراغوايا هم تشيكا وماريادينا وجوكا.

## (١٤)

مكتبة
t.me/soramnqraa

حدث بعد ذلك شيء لم يسبق له مثيل، فعندما بدأنا في التفرق، دلف إلى القاعة رجل أسود عملاق يحمل رُمحًا ثلاثيًّا ضخمًا[١]، فضلاً عن رجل أبيض طويل القامة ذي لحية كثة وشعر أشقر غزير. لم يكن الرجل الأسود يرتدي سوى مئزر، وقد وضع حول رقبته قلادة من الحجارة المتعددة الألوان. كان وجهه متصلبًا، وحواجبه كثيفة، وكانت عيناه متقدتين كالجمر. أما الرجل الأبيض فكان يرتدي عباءة من قماش تدلت على قدميه. كان وجهه ناعمًا، وعيناه جميلتين. بدا وكأنه يشبه السيد المسيح وسُرعان ما تعرف الناس عليه.

- صاحت عدة أصوات: تيرادينتس، تيرادينتس! مرحبًا جواكيم خوسيه دا سيلفا كزافيير. صاح آخرون: يحيا تيرادينتس!

---

(١) الرمح الثلاثي هو رمح له ثلاث شوكات أو أسنان. كان هذا الرمح يُستخدم لفترة طويلة في صيد الأسماك في أجزاء مختلفة من العالم، لذا فليس من المستغرب أن يكون هذا الرمح رمزًا لإله البحر اليوناني بوزيدون ونظيره الروماني نبتون. أضحى الرمح في وقت لاحق، رمزًا للنبالة في العصور الوسطى، كما كان الرمح سلاح شيفا في الهندوسية ويُعرف باسم تريشولا، التي تعني في اللغة السنسكريتية «الرمح الثلاثي».

على الرغم من أنهما كانا حافيي القدمين، فإنهما سارا رابطي الجأش نحو المنبر. شخص الرجل الأسود ببصره إلى الأسفل نحو أحد جانبي القاعة، ثم إلى الجانب الآخر. حدق تيرادينتس إلى اللانهاية. شاهدنا أنا ورودريغيز بذهول ذلك الظهور المزدوِج. كان ذلك مُذهلًا حقًّا.

- همستُ إلى رودريغيز: لم يكن تيرادينتس مُختفيًا، فلقد تمت محاكمته وإعدامه على الملأ.

- أجاب لكنه كذلك رجل ميت لم يحفل بموته أحد. لقد كان التاج البرتغالي يأمر بإيواء مثيري الفتنة بعد أن يُحكم عليهم بالموت شنقًا، وبوضع رؤوسهم في ساحة عامة. ذلك ما فعلوه مع تيرادينتس. وعلاوة على ذلك، فقد اختفى رأسه، ولم يتم العثور عليه أبدًا، لذا فإن روحه تعاني من نفس الحيرة التي نشعر نحن بها.

- سألته ماذا عن الرجل الأسود؟ من هو؟

- ألم تتعرف عليه؟ إنه زومبي دوس بالماريس. انظر كيف يبدو مهيبًا يقولون إنه حفيد الأميرة أكوالتون، ملكة بالماريس المحاربة.

- وهل كان زومبي مُختفيًا كذلك؟

- إنه مثل تيرادينتس. لقد قطعوا رأسه واستخدموا الملح لحفظه، ثم وضعوه فوق عصًا لترويع السود ولتبديد الاعتقاد بأنه

خالد. وها هو الآن هنا بيننا روح خالدة. إنه يُجسد أيقونة الرجل الأسود الشجاع الذي ينقذ شعبه.

- سألته: هل درست ثقافتهم.

- أجاب رودريغيز: لم أفعل ذلك إلا لمامًا. لكني أعرف أنهم يعتقدون في نبوءة عن كارثة تحل بالناس وتسبب معاناة جمة، وعندما يحدث ذلك، يظهر محارب قوي وشُجاع لتخليصهم من الكارثة. ذلك المحارب هو زومبي. استمعت إلى تفسير رودريغيز وشعرت مرة أخرى بالجهل.

- قلت: وما هو الرمح الثلاثي؟

- إنه رمح إيشو وترمز الأسنان الثلاثة في الرمح إلى دوافع الحياة الثلاثة: الجنس، والحفاظ على الذات، والدورة الروحية. وإيشو هو أحد آلهة أساطير اليوروبا الإفريقية. يرتحل إيشو عبر القرى مستمعًا إلى شكاوى كل من الرجال والأرواح، كما أنه هو الذي ينقل الرسائل من الأرواح الأخرى إلى البشر. لا بد أن زومبي يحمل معه رسالة. تذكرت بغتة ما قاله رودريغيز من أن أرواح السكان الأصليين المختفين لن تحضر المؤتمر لأن تلك الأرواح تعيش في أكوان أخرى.

سألت:

- إذا كان لدى السود تفسيرهم الخاص بهم لنشأة الكون، فكيف عرف زومبي بأمر المؤتمر؟

- أجاب رودريغيز بسرعة: لقد عرف ذلك بفضل التوفيق بين المعتقدات. لقد آمن المستعبدون السود بفكرة نشأة الكون اليهودية المسيحية، لكن دون أن يتخلوا عن نشأة الكون الخاصة بهم، فقد ربطوا الأوريشا[1] بالقديسين الكاثوليك.

عندما علم الجميع بأمر زومبي دوس بالماريس حدثت ضجة، وبدا كما لو أن ماسًا كهربائيًّا قد ضرب القاعة. بدعوة من ديفيد تقدم تيرادينتس صوب المنبر وتحدث بصوت بدا وكأنه قادم من أعماق الهاوية:

- نحن هنا لنطالب بمكاننا. لقد قطعوا أجسادنا إربًا إربًا، وألقوا بأشلائنا إلى الوحوش، تمامًا كما حدث لبعض الموجودين منكم هنا. نحن مثلكم إلى يومنا هذا بلا قبر ولا شاهد قبر. إننا نشارككم نفس مُثُل الحرية. لقد ناضلنا مثلكم من أجل مُثل الثورة الجمهورية: الحرية والإخاء والمساواة. لقد انتحل جلادونا صورنا وشوهوها. يقولون إننا تآمرنا لأطماع مادية نُشبع بها جشعنا. الواقع أن التاج البرتغالي هو الذي كان مهووسًا بالذهب، فطلب منا ذهبًا أكثر مما يمكننا الحصول عليه. لكنهم لا يذكرون سوى القليل عن مُثُلنا الجمهورية والتنويرية. كانت معركتي من أجل الاستقلال، ومن أجل

(١) تشير الأوريشا إلى أرواح تلعب دورًا محوريًّا في ديانة اليوروبا في غرب إفريقيا، فضلاً عن المجتمعات الإفريقية في البرازيل. ووفقًا لهذه المعتقدات فإن الأوريشا تمثل أرواحًا يُرسلها الخالق الأعظم أولدوماري ليساعد البشرية على الحياة السعيدة على الأرض.

إقامة جمهورية علمانية، تسترشد بقيم النزاهة والعدالة والتضامن، وهي المبادئ التي تريد الزمرة الفاشية حرماننا منها جميعًا. بل إن هناك من بين هؤلاء ملكيون يشعرون بالحنين إلى العبودية. لقد حاولوا إلغاء عطلة ٢١ إبريل[١]، ولو استطاعوا لمسحوا اسمي من الكتب والساحات. لقد حاولوا القضاء على الدولة الجمهورية، وسيسعون إلى ذلك مرة أخرى. لقد جئنا لحضور هذا الاجتماع لندعوكم إلى القتال! إن المقترحات التي اعتمدتموها جميلة، لكن الكلمات وحدها لا تكفي. في الشوارع والميادين يُصنع التاريخ. أقترح مسيرة إلى برازيليا.

نزل تيرادينتس من المنبر وسط عبارات الدعم والتأييد. وسُرعان ما اعتلى زومبي المنبر وتحدث. عبَّر الرجل الأسود عن نفسه بكلمات برتغالية خالصة، ولَوَّحَ بالرمح الثلاثي في لحظة من لحظات المجد. أوضح لي رودريغيز أن زومبي تعلم اللغة البرتغالية من كاهن اختطفه وكان لَمَّا يزل طفلًا صغيرًا، وأنه لم يتعرف على ثقافة وطقوس الأوريشا إلا في وقت لاحق في بالماريس على يد رجل حكيم يُدعى دجيلي. هذا ما قاله زومبي:

---

(١) ٢١ إبريل هو يوم تيرادينتس في البرازيل حيث يُحتفل به كذكرى لموت تيرادينتس (١٧٩٢) الذي يعد شهيدًا وطنيًّا لأنه قاد ذلك التمرد الذي استهدف تأسيس جمهورية مستقلة في البرازيل.

- أنا، بالنسبة إلى من لا يعرفني، زومبي دوس بالماريس، ابن أوغوم. ذكريات طفولتي قليلة ومربكة. أعلم أن عمي جانجا زومبا عينني قائدًا في الجيش، وقد تم تسميمه بعد ذلك على نحو جبان. أنا مثله محارب ومناضل.

لقد قاتلت ضد من ادعوا ملكية الغابات طوال خمسة عشر عامًا. صمدت في وجه ثماني عشرة حملة عسكرية وعشت إلى ما يُناهز مئتي عام. لكنني لم أتِ إلى هذا المؤتمر كي أتحدث عن نفسي. لقد جئت رسولًا من الأوريشا لأتحدث نيابة عن آلاف السود الذين قاوموا في بالماريس وفي كويلومبو وفي العديد من أنحاء البرازيل، وتلك أشياء لا تُذكر إلا لمًا في المدارس والكتب. لا يُقال الكثير عن السود الذين أُلقي بهم في مياه المحيط الأطلسي أثناء تجارة الرقيق، وكل أولئك الذين تعرضوا للجلد والتعذيب، وعن النساء السود اللاتي اغتصبهن المزارعون، وعن أولئك السود الذين قُتلوا في باراغواي، في حرب لم تكن حربنا، مُقابل وعود كاذبة بالحرية لم يتم الوفاء بها أبدًا. أقول لكم إن كل السود الذين تتجول أرواحهم بلا قبر سوف ينضمون إلينا! إن العبودية لم تنتهِ بعد، بل تغير شكلها فحسب!

كنا لا نزال تحت تأثير الخطابين عندما اندفع شخص آخر عبر المدخل الرئيسي للكاتدرائية وسار نحونا بحزم. ظننت أنه تجلٍّ آخر. من تراه يكون هذه المرة؟ عندما اقترب من المنبر لم يكن يرتدي سوى مئزر وعلى رأسه قلنسوة زاهية. صاح البعض: رجل

من السكان الأصليين. إنه زعيم. يهتف آخرون مورو بيكاسابا. كان الرجل أسمر البشرة، مفتول العضلات، قوي البنية، وكانت عيناه زائغتين، حمراوين كالجمر، وعلى جبينه ندبة على شكل نصف قمر. كان يحمل رُمحًا طويلًا مُدببًا في يده اليمنى. يقف الرجل بين زومبي وتيرادينتس، ويرفع يده اليسرى طالبًا أن يولي الناس قدرًا من الاهتمام لما سيقول. يتحدث الرجل بعد بضع ثوانٍ بصوت متئد وبلكنة تشبه لكنة الغاوتشو[١].

- أيها الأصدقاء! لقد جئت من مسافة بعيدة، لذلك تأخرت. لقد أتيت من منطقة الإرساليات السبع[٢]. لقد تم تعميدي وأنا على يقين من ذلك. كان اسمي عند المعمودية هو جوزيف واسمي الحركي هو سيبي تيارجو، يعني شعاع النور. لقد ترعرعت لأكون شامانًا، أي وسيطًا بين البشر والآلهة، لكن تغلبت عليَّ روح الحرب فأصبحت زعيم قبيلة وزعيمًا لمحاربي منطقة الإرساليات السبع. لقد ناضلت، مثلي

---

(١) الغاوتشو هو محارب اشتهر بشجاعته. يُعد رمزًا فلكلوريًا في الأرجنتين والأوروغواي، وكذلك في جنوب منطقة بتاغونيا في تشيلي، وفي منطقة ريوغراندي دو سول في البرازيل.

(٢) منطقة الإرساليات السبع هي منطقة تاريخية من أمريكا الجنوبية تقع الآن في أقصى جنوب البرازيل في ريو غراندي دو سول. كانت في الفترة من ١٦٠٩ إلى ١٧٥٦ منطقة شبه مستقلة تحت إدارة الجزويت/ اليسوعيين. اشتهرت هذه المنطقة بمقاومتها للعبودية وبقوانينها المتسامحة التي تستند إلى الإنجيل. كانت الإرساليات السبع هي سان ميغيل وسانتوس أنجيلس، وسان لورنزو مارتير، وسان نيكولاس، وسان جوان باوتيستا وسان لويس غونزاغا، وسان فرانسيسكو دي دورجا.

في ذلك مثل زومبي وتيرادينتس، من أجل الحرية. لقد أرادوا طردنا لكنني واجهت الجنرال وقلت له: لقد منحت السماء الحرة تلك الأرض التي تمشي عليها لأجدادنا الأحرار، وسيرثها من بعدنا أبناؤنا الأحرار. لقد واجهت ثلاثة آلاف وسبع مئة جندي برتغالي وإسباني. يداي وخوذتي ملطختان بالدماء لأنني أبدًا لم أنحنِ لأحد. لكنهم الآن، كما فعلوا مع تيرادينتس، يريدون أن يستولوا على نضالي وعلى ذاكرتي. يقولون إنني صعدت إلى السماء لأنه أبدًا لم يتم العثور على جسدي فأعلنوا قداستي. لكن ذلك كذب، فهم لم يعثروا على جثتي لأنهم قطعوا رأسي وأحرقوا بقاياي. لقد قُتلت غدرًا برصاصة من بندقية قديمة الطراز، في ليلة اكتمال القمر، في ٧ نوفمبر ١٧٥٦. بعد ذلك بثلاثة أيام قتلوا ألفًا وخمس مئة متمرد. ومنذ ذلك الحين وقعت العديد من المجازر، لكنني هنا معكم، لأن للحرية روح الأبدية. أنا لست قديسًا، ولا صانع معجزات، ولا أنتمي إلى الكنيسة، ولا إلى المستعمرين، بل أنتمي إلى شعب الغواراني.

بعد أن قال ذلك أمسك تيرادينتس وزومبي وسيبي بعضهم بأيادي بعض ورفعوها دلالة على الانتصار.

- سألت رودريغيز: ألم تقل إن الهنود لن يأتوا لأنهم يسكنون عوالم أخرى غير عالمنا؟

- اتضح أن السكان الأصليين الذين تم تنصيرهم يسكنون

نفس كوننا. لقد استمعت إلى سيبي عندما قال إنه تم تعميده وهو على يقين من ذلك. في مثل هذه الحالة، لم يكن هناك حاجة إلى التوفيق بين المعتقدات، لأنه حدث تداخل بين الأساطير الكاثوليكية بما تضمه من ذلك الجمع الغفير من القديسين، وبين أساطير السكان الأصليين.

- سألته: أكنت على علم بهذه القصة؟

- قال، نعم، إنها مشهورة جدًّا في ريوغراندي دوسول، فهناك يُعد سيبي بطلًا قوميًّا، حتى أن هناك قصيدة ملحمية كتبها باسيليو دا غاما[1]. تمجد قتال سيبي ضد الغزاة.

- لم أكن أعرف شيئًا عن ذلك.

- حسنًا، يجب أن تعلم أن الإرساليات اليسوعية كانت مصدر إلهام للاشتراكيين الأوروبيين، فتلك الإرساليات تعد مثالًا بارزًا على السعي للوصول إلى المدينة الفاضلة. لقد كانت تلك مجتمعات شيوعية ناجحة جدًّا إلى درجة أنها ألهبت الخيال الأوروبي، وأثَّرت في هيغيل[2] وفي التنويريين والطوباويين، والاشتراكيين، بل وحتى الفوضويين إلى

---

(١) جوزيه باسيليو دا غاما (١٧٤٠-١٧٩٥) شاعر برازيلي من المستعمرين الجزويت اشتهر بقصيدته الملحمية «أوراغوايا» التي كتبها عام ١٧٦٩ وتضم ١٣٧٧ بيتًا.

(٢) فريدريك هيغيل (١٧٧٠-١٨٣١) فيلسوف ألماني يُعد أحد أهم رموز الفلسفة المثالية. كان له تأثير كبير في الميتافيزيقا والفلسفة السياسية وفلسفة التاريخ.

درجة أن العمال الباريسيين قد أطلقوا على أتباع بابوف[1] وبلانكي[2] لقب اليسوعيين الحمر.

- وهل كانوا شيوعيين حقًّا؟

- كانت تلك مجتمعات شيوعية مزدهرة. كانت هناك اشتراكية في ملكية وسائل الإنتاج مع دمج الممارسات التعاونية التي يستخدمها الغواراني في الصيد والقنص. كان لديهم الآلاف من رؤوس الماشية، كما أنهم أنتجوا مشروب الماتي وصدروه، وكانت لديهم مدارس وجوقات موسيقية وورش فنية وورش نجارة، وحتى محاجر ومطابع وقد استخدم اليسوعيون الفن على نحو مكثف وحاولوا عن طريقه محو ثقافة السكان الأصليين.

- وكيف انتهى أمر تلك المجتمعات؟

- دمر رابوسو تافاريش ست عشرة إرسالية كانت موجودة على هذا الجانب من نهر الأوروغواي. فر اليسوعيون من هناك، لكنهم عادوا وأسسوا منطقة الإرساليات السبع التي آوت ما يناهز خمسين ألفًا من السكان الأصليين، حتى وقعت البرتغال وإسبانيا عام ١٧٥٠ اتفاقية ترسيم الحدود

---

(١) فرانسوا - نويل بابوف (١٧٦٠-١٧٩٧) ويُعرف كذلك باسم غراكوس بابوف. ثوري وصحفي فرنسي كان من المدافعين الأشداء عن الديمقراطية. أُعدم بابوف بتهمة التآمر إبان الفترة الثورية الفرنسية (١٧٨٩-١٧٩٩).

(٢) لوي أوغوست بلانكي (١٨٠٥-١٨٤٨) ناشط سياسي فرنسي اشتهر بكتاباته الثورية.

التي انتقلت بموجبها هذه المنطقة إلى الجانب الإسباني. قاوم السكان الأصليون الطرد من أراضيهم، وتعرضوا لهجوم من قبل الجيشين البرتغالي والإسباني. كانت معركة غير متكافئة إلى درجة أن ألفًا وخمس مئة من السكان الأصليين قُتلوا، مقابل ثلاثة فقط من الجانب الآخر. كانت تلك مذبحة وإبادة جماعية حقيقية.

# (١٥)

وهكذا ولدت مسيرة الأشباح التي بدأت محدودة، ينيف عددها قليلًا على مئتين، وازداد عددها مع التقدم نحو برازيليا. مشينا ببطء لنعطي للأرواح المضطربة الأخرى وقتًا للانضمام إلينا. استغرق الأمر أربعين يومًا، عبرنا خلالها مسارات ودروبًا نائية في ساو باولو وميناش وغوياش. انضم إلى المسيرة، في الأيام الأولى ثلاث مئة شبح من الشباب الذين أخفتهم الشرطة العسكرية في ساو باولو، وكان أغلبهم من السود، وكان بعضهم من الصبية. سرعان ما ظهر ثلاثة صبية من الذين اختفوا في بلفورد روكسو. أمسك الثلاثة بعضهم بأيادي بعض، وكان أحدهم يبلغ من العمر ثماني سنوات فقط. عند عبور ميناش، كان هناك أربعون شابًّا أخفتهم الشرطة في ميناش جيرايش، وكان أغلبهم من السود. كان هناك أيضًا ثلاثة مختفين من بروماديو، وكانوا في الثلاثينيات من العمر، كما كان هناك ثلاثة رجال وست نساء. في ضواحي برازيليا، انضم الأشخاص الذين اختفوا بعد إطلاق النار عليهم في ماتو غروسو إلى المسيرة.

عندما وصلنا إلى ساحة الوزارات، كان المختفون من الشمال والشمال الشرقي قد سبقونا إلى هناك. إضافة إلى بعض من الكابوكلوس الذين قتلوا في بارا وفي مارانياو على يد مسلحين بتحريض من لصوص الأراضي والمناجم، إضافة إلى بضعة آلاف من سُكان الريف ممن قتلوا في كانودوس، وبعض المثقفين من السكان الأصليين، فضلًا عن قادة اتحادات الفلاحين، والمختفين من كاباناغم، وحرب كونتيستادو، وثلاثة مقاتلين من أراغوايا لم يكونوا قد حضروا المؤتمر وهم كويكسادا ونونيس وكريستينا. كان عامل البناء أماريلدو هناك أيضًا.

كانت ساحة السلطات الثلاث تعج بالأشباح. تشكلت حلقات حول المتحدثين، وكان يتحدث في إحداها رجل أسود نحيف، ذو وجه نحيل ولحية خفيفة. كان يرتدي بزة عسكرية ممزقة وبدون أكتاف. أبدينا اهتمامًا لما يقول:

- لقد حكموا علينا باللعنة حتى الجيل الثالث. تردت حالة زملائي، وقطعوا رؤوسنا، وعلقونا في الساحة لتخويف سكان باهيا. لكننا لن نستسلم أبدًا. سيأتي وقت نكون فيه جميعًا إخوة. لن يكون هناك المزيد من العبيد أو الملوك، وسيُحكم على كل فرد حسب خصاله، ولن تظل البرازيل مستعمرة، وسيتولى الجنود حماية الشعب لا مَن هم في السلطة. يحيا الشعب البرازيلي! تحيا باهيا!

قال رودريغيز متحمسًا:

- لا ريب أن هذا الجندي هو لويز غونزاغا داس فيرجينيس، أحد قادة حركة باهيا، التي أعقبت تيراداينتس بعقد من الزمان. لقد قاومت حركة باهيا الاحتلال الكولونيالي، تمامًا كما فعل تيراداينتس، لكن هذه الحركة مضت إلى ما هو أبعد من ذلك حيث طالبت بتأسيس الجمهورية، وتحرير العبيد.

مشينا بين الحلقات، ووجدنا أنفسنا في حلقة ونحن نستمع بانتباه إلى كلام رجل نحيل عجوز. كان الرجل أسود البشرة، يرتدي معطفًا أبيض، وكان متكئًا على عصًا. اقتربنا منه وكان خطابه سلسًا ومتئدًا، وقد روى قصة مؤثرة.

- لقد ولدت من رحم الليل، وأبدًا لم أقبل العبودية. لقد كنت أدير مطاحن الدقيق من أسبيريتو سانتو إلى المناطق النائية في مارانياو. لقد حررت ما ينيف على ألف شخص من الأسر، وسافرت نصف فرسخ في طريق الذهاب ومثله في طريق العودة. مضيت على ساق، وعدت على الأخرى. أسسوا جيشًا ليقبضوا عليَّ. اعتقلوني ثماني مرات وحكموا عليَّ بالموت شنقًا ثماني مرات، لكنني هربت. قتلوني ثلاث مرات، وثلاث مرات ولدت من جديد. لا أهاب شيئًا فالقديس بنيدكتوس هو من يحميني.

سألت رودريغيز: هل تعرف من هو؟ لم يكن رودريغيز يعرفه. قال إنه كان هناك الكثير من حركات تمرد العبيد، وقليل منهم فقط أتت الكتب على ذكره. سألت أحد الكابوكلوس من هو ذلك

الرجل العجوز. قال إنه بينيديتوميا ليغوا، وقد شكل عصابة حولت حياة أصحاب المزارع من الإقطاعيين إلى جحيم، وقد نشطت تلك العصابة في أسبيريتو سانتو وباهيا.

سألت: وكيف تم قتله؟ كما قال أحد الكابوكلو، لم يقبضوا عليه إلا عندما كان عجوزًا ومريضًا ويعرج على ساق واحدة. كان يعيش في جوف شجرة وقد أبلغ عنه صياد. قيل إن مالك الغابة جاء وغطى الفجوة بالطين وتم إلقاء القبض عليه.

افترقت عن رودريغيز، الذي أراد أن يستمع إلى قصة بينيديتوميا ليغوا، وسرت بمحاذاة الشرفة. كانت مجموعات من السكان الأصليين يرقصون على إيقاع الكوكاليوس[1] وقد ارتدوا أغطية الرأس ومآزر من القش. توقفت إلى جوار مجموعة كبيرة من سكان الريف، رجالًا ونساءً، وقد التفوا حول أحد الوعاظ. كان العديد من الأطفال حفاة الأقدام يحيطون ببعض النساء. كان الواعظ ريفيًّا طويل القامة، وكان نحيفًا جدًّا ويرتدي سترة سوداء تصل إلى منتصف الساقين. كان هو كذلك حافي القدمين. كان يعظ الناس وهو يشير بيد واحدة، وقد أراح يده الأخرى على متعلقات الحجيج. كان وجهه جافًّا، وكانت لحيته كثة، وكان شعره المتشابك يمتزج وينسدل حتى كتفيه. اقتربت لأتعرف على الطوباوي أنطونيو كونسيلييرو. استمعت إلى جانب من خطابه، وجاء به نبوءة رهيبة.

---

(١) الكوكاليوس آلة إيقاع موسيقية برازيلية، تتكون من إطار من الألمنيوم أو الخشب وبداخلها كريات معدنية. يتم العزف على الكوكاليوس عن طريق هزها ذهابًا وإيابًا.

- كنت ميتًا، ولكنني الآن حي إلى أبد الآبدين. شخصت ببصري فأبصرت حصانًا شاحبًا، راكبه يُدعى الموت. وكان عالم الموت يتبعه أنَّى سار. هيمنت سلطة الموت على ربع الأرض لمعاقبة وقتل الكفار جوعًا ومرضًا وجفافًا. ستكون هناك كارثة رهيبة. سوف تفسد الأرض. ستتحول المناطق النائية إلى بحر، وسيتحول البحر إلى مناطق نائية. ستكون الشمس سوداء كملابس الحداد، والقمر أحمر كالدم. بخمسة أوبئة من أحشاء الأرض، هي السم والنار والدخان والسلفور والدود تموت ثلث البشرية، ولا يبقى لها أثر على الأرض.

عدت إلى رفقة رودريغيز. قال: انظر كيف أن الموتى لا يظلون صامتين أبدًا، حتى من مات منهم منذ ردح طويل من الزمن، وكأنهم لم يكن لهم أي وجود، تمامًا كما تنبأ بذلك الفيلسوف فلاديمير سافاتلي[1]: أولئك الذين أرادت السلطة محوهم، لا جسدًا فقط، بل في خيال الناس، سوف يعودون، بقوة أشباح غير مسبوقة، لينقلبوا على نفس السلطة التي أخفتهم.

فكرت في لقائنا قبل بضعة أشهر في ساحة الجمهورية، حيث بدأ كل شيء. قال رودريغيز آنئذ إن ذلك لم يكن بمحض الصدفة،

---

(١) فلاديمير بينيرو سافاتلي (١٩٧٣) فيلسوف وكاتب وموسيقي برازيلي ولد في تشيلي. يعمل حاليًّا أستاذًا للعلوم الإنسانية في جامعة ساو باولو. اشتهر بفضل عموده الصحفي في صحيفة فوليا دي ساو باولو. يرُكز في أعماله الفكرية في نظرية المعرفة وعلم النفس والنظرية النقدية والموسيقى.

ولكن بتصميم من آلهة الحظ. سألته: هل تعتقد أن آلهة الحظ كانت ترمي إلى نهاية عالم الأشباح وأن مؤتمرنا كان مجرد أداة؟ أجاب: ربما تستمتع الآلهة باللهو بمصائر البشر.

تأمل رودريغيز الحشد مُنتشيًا وقد غمرته ابتسامه. تذكرت مانويل باندیرا[1] وترنمت بصوت خفيض: على شفته المتعبة، أشرقت ابتسامة/ كانت ابتسامة السخرية الأبدية/ التي انتصرت على الحياة، وانتصرت على الموت.

النهاية.

(١) مانويل كارسيرو دي سوسا باندیرا فيليو (١٨٨٦-١٩٦٨) شاعر وناقد أدبي ومُترجم برازيلي، له ما ينيف على ٢٠ كتابًا تراوحت بين الشعر والنثر.

# خاتمة

# الاختفاء: فعل متعدٍّ

رغم أنه كانت هناك دائمًا حالات اختفاء سياسي، فإن هذا المصطلح لم يُهيمن على المخيلة الاجتماعية إلا بعد تفشي هذه الطريقة الخبيثة لإبادة المعارضين السياسيين في أمريكا الجنوبية فيما بين ستينيات وسبعينيات القرن الماضي. لقد تم ذلك من خلال أجهزة معقدة وسرية استخدمتها الدول المارقة لتخفي جرائمها وضحاياها وسياساتها في الإبادة.

لربما ظهر المصطلح مع الاستعمار، لكننا الآن نجده في كل مكان: في مياه البحر المتوسط، كفنًا لآلاف اللاجئين المجهولين، في رمال الصحراء الكبرى، في صحراء أريزونا، في سهوب سيبيريا، في جبال أفغانستان، في منحدرات البلقان، في كل مكان. هناك مئات، بل وربما ملايين، من الأشخاص المفقودين. هناك الكثير إلى درجة أن المصطلح قد استهلك من كثرة الاستخدام: جسد بلا هوية، وهوية بلا جسد.

يؤثر الاختفاء تأثيرًا كبيرًا في الفرد والجماعة. يخلق الاختفاء

بالنسبة إلى العائلة حالة غامضة من الغياب والحضور في الوقت نفسه. إنه غياب حاضر، كاللعنة، يؤثر في الأمهات والأطفال والآباء والإخوة بقية حياتهم. هنا يختلف معنى الموت. في الاختفاء ليس هناك من حد فاصل، بل فجوة، فترة طويلة من الزمن تحتوي على شيء لسنا ندري ما هو: لغز، علامة استفهام بين الموجود واللاموجود. شيء تم للتغطية على جريمة بشعة.

أما بالنسبة إلى المجتمع، فإن حالات الاختفاء المتعاقبة، التي تشبه اللغز الغامض، تتم من دون أن تترك أثرًا. ينتج من ذلك حالة من الذهول، أو الإحساس بما أسماه خوليو كورتاثار[1] الكائن الشيطاني الذي يتجاوز مجال العقل وحدود اللغة. الاختفاء قوة خيالية في هذا الكون. يبدو الاختفاء في الوقت نفسه خارقًا للطبيعة حيث أنه يأتي من أعماق الشر. وبما إن الضحايا ينتمون إلى فئة معينة تود السلطة اجتثاثها من الجسد الاجتماعي، فإن الاختفاء يضحى أداة للإرهاب تستهدف بث الرعب الجماعي.

يعود الفضل إلى الجنرال خورخي رفائيل فيديلا[2]، العقل المدبر الرئيسي وراء حالات الاختفاء في الأرجنتين، في تقديم أفضل تعريف لنظام الاختفاء. لقد فعل ذلك على نحو عفوي، في مقابلة

---

(١) خوليو كورتاثار (١٩١٤-١٩٨٤) روائي ومترجم أرجنتيني شهير. يُعد أحد مؤسسي حركة «البوم» أو الازدهار الأدبي في أمريكا اللاتينية.

(٢) خورخي رفائيل فيديلا (١٩٢٥-٢٠١٣) كان الرئيس الفعلي للأرجنتين إبان حقبة الدكتاتورية العسكرية (١٩٧٦-١٩٨١). وصل إلى السلطة في أعقاب انقلاب عسكري على إيزابيل بيرون.

متلفزة، لدى عودته من زيارة إلى البابا يوحنا بولس الثاني في عام ١٩٧٩. وقد رأى فيديلا وجنرالاته أنه كان من الضروري القضاء على ما بين سبعة آلاف وثمانية آلاف من المتمردين الأرجنتينيين لضمان استمرار النظام السائد.

الصحفي خوسيه أجناسيو لوبيث:

- أريد أن أسألكم: «هل واجهتم البابا في هذه المسألة، وهل هناك أي إجراء سوف تتخذه الحكومة إزاء هذه المشكلة؟»

الجنرال خورخي رافائيل فيديلا:

- «المختفي هو شخص مفقود، غير معروف. إن ظهر فسوف يكون في حاجة إلى تلقي العلاج. إنه مفقود، ولا يمكننا أن نفعل أي شيء حياله، لكننا نعتني بأسرته».

نحن نفكر، ونتأمل، ونتخيل، وحتى نحلم من خلال الكلمات. يعمل المجتمع على تجاوز الصدمة الجماعية. لقد كان هناك معتقلون، وكان هناك من تعرضوا للتعذيب، ومن تعرضوا للدهس، وكان هناك من أُطلق عليهم الرصاص، بل حتى من انتحروا. لكن من اختفوا لا توجد لهم كلمة لأنهم ببساطة قد اختفوا. تختفي الأشياء، وتختفي السُّحب، لكن الناس لا يختفون. يمكنهم الهروب، ويمكنهم الاختباء، ويمكن أن يُقتلوا، لكنهم لا يختفون قسريًّا. المفقود لا يختفي. إنهم يختطفونه ثم يختفي.

ابتكر المجتمع مصطلح الاختفاء السياسي، لكن لربما كان ينبغي

أن يستخدم مصطلح الاختطاف السياسي. لا تظهر الكلمات على نحو عشوائي، بل هي تعبير عن علاقات القوة، والمراحل المعرفية للاستحواذ على الواقع. في البداية كان الاختفاء المفاجئ للأشخاص هو وحده الذي يثير الدهشة، وليس آليات الاختطاف والتعذيب.

وهكذا ظل مصطلح الاختفاء السياسي على حاله في أميركا الوسطى والجنوبية، رمزًا للشر المطلق، تمامًا مثل رمز نهاية العالم في الرواية التوراتية وأوشفيتز في أوروبا المعاصرة. بعد مرور بعض الوقت، لربما سيتم تأسيس مجال معرفي جديد يركز في المطالبة بالقصاص، وسيكتسب المختفي السياسي وصفًا سياسيًّا وشخصية قانونية.

الواقع أنه ليس بين عشرات المعاني لفعل الاختفاء المدرجة في قواميس اللغة البرتغالية ما يقارب تعريف فيديلا الساخر. لم تحدد قواعد اللغة طبيعة الفعل «يختفي» في صيغة المتعدي، ولم تذكر القواميس كيف يُمكن التعامل مع اسم من يختفي كنعت. يُقال: اختفى -اسم- شخص لا يُعرف مكان وجوده، أو يُفترض موته، على الرغم من أنه لم يتم العثور على الجثة.

إن ذلك نوع من التقريب، وما زال ذلك المدخل في القاموس عاجزًا عن كشف كنه وخصوصية الاختفاء القسري للناشطين السياسيين، بسبب كونهم كذلك. الواقع أن المختفي كان تحت تحفظ الدولة وقت اختفائه، وتلك هي بالضبط اللغة الرسمية التي تصف الاختفاء القسري في المكسيك وفي إسبانيا ما بعد فرانكو. لا

تُشير تلك اللغة إلى القسوة والفساد ولا تشير إلى أن سبب الاختفاء هو معارضة الدولة القمعية ورفض الواقع المتحيز. في الأرجنتين مثلًا كان يتم اغتصاب النساء اللاتي يختفين على نحو ممنهج.

الفعل «يختفي» هو فعل لازم بالمعنى الحرفي للكلمة. تمامًا مثل الموت، ليست هناك حاجة إلى أي مكملات. قد يكون هناك حديث عن مقتل الشخص ولا يوجد حديث عن اختفائه. عندما يختفي شخص من المدينة، فإنه عادة ما يُقال: كيف حدث ذلك. من الضروري إذن أن نكسر حدود القواعد. يأمرنا كونفوشيوس[1] أن نُسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية، فبدلًا من أن يقال: مات فُلان، يقال: قُتل فُلان، وبدلًا من أن يُقال: قُتل الطاغية، يقال: لقد تم تصفية الطاغية.

إن اختفاء الناس في ظل هذه السردية لهو أسوأ من الموت. يتم اختطاف الشخص وتعذيبه وحرمانه من أي اتصال بالعالم الخارجي، ثم قتله وإخفاؤه. لذلك، فمن الضروري أن يكون للفعل «يختفي» كذلك وظيفة متعدية: يجب أن يقال: أخفت الشرطة فلانًا وفلانًا، بدلًا من استخدام المبني للمجهول: اختفى فُلان وفُلان. إن المبني للمجهول يشير إلى وجود فاعل خفي للفعل، كما يُخفي اللجوء إلى العنف. وبسبب كل ذلك فإنه يجب أن يشير الفعل بوضوح إلى التأثير المزعج للاختفاء في اللاوعي الجماعي.

---

(١) كونفوشيوس أو كونغ فوشي (حوالي ٥٥١ ق.م. - حوالي ٤٧٩ ق.م.) فيلسوف صيني يُجسد الحكمة الصينية.

إن دلالات الاختفاء السياسي، مثلها في ذلك مثل المرض، هي دلالات ديناميكية. إنها باثولوجيا لغوية تنتج من باثولوجيا اجتماعية. وتكتسب تلك الدلالات معاني جديدة مع تطور الإدراك الجماعي. وتُعاود تلك الدلالات الظهور، من وقت إلى آخر، لكن بمعانٍ جديدة ومن خلال مجالات معرفية جديدة. أما في المجال القانوني، فإننا نجد أن العدالة الانتقالية قد وُلِدَت، وتتكون هذه العدالة من المطالبة بالحقيقة والذاكرة والإنصاف في جرائم الاختفاء، وهي عدالة سُرعان ما تتحول إلى عدالة تصالحية. يتأسس حق أساسي جديد من حقوق الإنسان، وهو الحق في معرفة الحقيقة. تتأسس مساحة جديدة للمعارك السياسية، فضلًا عن قوانين استرضاء جديدة وهي قوانين سيئة السمعة مثل قانون النقطة النهائية[١] وقانون الطاعة الواجبة[٢].

وُلدت كذلك أداة جديدة في علم الأحياء، وهي تقنية التعرف على الأحفاد بناءً على الحمض النووي لأجدادهم إذا كان الوالدان قد اختفيا. إن الأحفاد يشكلون فئة خاصة من الأشخاص المُختفين. لم تُسرق حياة هؤلاء فحسب، بل سُرقت هوياتهم كذلك.

---

(١) قانون النقطة النهائية (Ley de Punto Final) هو قانون تم إقراره في الأرجنتين عام ١٩٨٦ بعد انتهاء الدكتاتورية العسكرية بثلاثة أعوام. ينص القانون على إنهاء التحقيقات مع كافة المتهمين بالعنف السياسي إبان فترة الدكتاتورية.

(٢) قانون الطاعة الواجبة (Ley de obediencia debida) هو قانون تم إقراره في الأرجنتين بعد انتهاء الدكتاتورية العسكرية، يُعفي القوات المسلحة وقوات الشرطة من أية محاكمة نتيجة الجرائم التي ارتكبوها.

وفي المجال الجنائي يظهر علم جديد وهو أنثروبولوجيا الطب الشرعي، وهو علم يستخدم التقنيات الحديثة لا للكشف عن الجرائم التي يسعى إلى إخفائها شخص مارق بل الجرائم التي تسعى إلى إخفائها دولة إرهابية مارقة. وهكذا يعاود المختفون الظهور كأشباح تُطارد الأحياء.

ومع ذلك، وكما صدر مرسوم العفو في نهاية الدكتاتورية العسكرية، والذي تم بموجبه العفو عن مرتكبي حالات الإخفاء دون محاكمة، فإن اللغة القانونية في البرازيل، على خلاف اللغة القانونية في المكسيك، لم تُصنف حتى الآن الاختفاء كجريمة محددة. لقد تم تعريف الاختفاء على أنه انتهاك للإنسانية في الاتفاقيات الدولية لأنه يؤثر في جوهر الحالة الإنسانية، ومع ذلك فلا نجد حتى تعريفًا للاختفاء في القانون البرازيلي. لم يرد ذكر الاختفاء حتى في نصوص المادة ٧٠ من قانون العقوبات، أو في القانون رقم ٦٠٥١/ ٧٣ الذي يُجيز للقاضي قبول تسويات أحكام الإعدام في حالة المفقودين نتيجة غرق السفن أو الفياضانات أو الحرائق أو الزلازل أو أية كارثة أخرى.

لا تزال هناك ثغرة في قانون السجلات المدنية الذي يسمح للقاضي بإصدار حكم بالاختفاء أو الوفاة: أولًا: إذا كان من المحتمل جدًّا وفاة شخص كانت حياته في خطر، ثانيًا: إذا لم يتم العثور على شخص مفقود في حملة عسكرية أو في الأسر، خلال عامين من انتهاء الحرب.

يبقى أن نضيف: ثالثًا: إذا لم يتم العثور على الشخص الذي اعتقله عملاء الدولة بسبب نشاطه السياسي خلال سنتين من اعتقاله. يبدو الأمر كما لو أن المشرِّع البرازيلي كان أيضًا جزءًا من الآلة المعقدة التي تهدف إلى الاختفاء. آخر تروس تلك الآلة أن يختفي الشخص من الفقه القانوني كذلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# شكر وتقدير

أود أن أشكر أصدقائي الذين قرءوا نسخ هذا العمل وأبدوا آراءهم حوله: كارلوس تيبورسيو، كارلوس ناب، كلاوديو سيري، إنيو سكويف، فلاماريون ماوس، وجيزلين سيلفا. خوسيه جينوينو، وهارولدو سيرافولو سيريزا، وجوانا مونتيليوني، وباولو كامباناريو، وسو برانفورد، وزوجتي موتسوكو. شكر خاص لزيلدا جونكويرا وبيدرو إستيفام بومار على قراءة النسخة النهائية. كما أنني مدين كذلك لتايش دي مورايش وأومانو سيلفا مؤلفي كتاب «عملية أراغوايا»، وكذلك فإنني مدين لكافة الأكاديميين والناشطين السياسيين من الأرجنتين وتشيلي وبيرو والمكسيك والأوروغواي. لكن المسؤولية الأخيرة عن هذا النص تقع على عاتقي وحدي.

اشتهر برناردو كوسينسكي بفضل روايته "لك: تقرير بحث" التي صدرت عام ٢٠١١. تدور أعماله حول "الثقب الأسود" للذاكرة إبّان حقبة الدكتاتورية في البرازيل (١٩٦٤-١٩٨٥)، ولذا فإن إنتاجه الأدبي يعد مشروعًا أدبيًا متماسكًا يواجه سياسات النسيان واغتيال الذاكرة، وهي سياسات تجد لها أرضًا خصبة في البرازيل.

يُعد عمله الأخير - الذي بين يديك الآن - مُربكًا من عدة نواح، فالرواية لا تضم، بادئ ذي بدء، سوى ضحايا للاختفاء نتيجة ممارسة إرهاب الدولة، هذه الممارسة التي أُستخدِمت على نطاق واسع في ديكتاتوريات أمريكا اللاتينية في القرن العشرين، إلا أن كوسينسكي يُقدّم ذلك في سياق الاستعمار، أي منذ تأسست البرازيل.

يُعيد كوسينسكي في هذه (الرواية-المانيفستو) بناء تاريخ البلاد من وجهة نظر ممارسات سياسات الهيمنة والتصفية الجسدية أو ما يعرف بالنيكروبوليتيكس Nec-ropolitics. من الواضح أن الرواية ترمي إلى دفعنا إلى إعادة شحذ ذاكرة مقاومة الفاشية، فلا ريب أنها قد استلهمت أفكارها من رواية خوان رولفو المعروفة "بيدرو بارامو"، حيث تُقدّم إلينا نوعًا من التأمل النقدي الذاتي. يمزج كوسينسكي، كما هو معتاد، في عمله هذا بين الشخصيات التاريخية والراهنة بما يسمح لنا بتخيل وإعادة رسم صورة واضحة لحقبة الدكتاتورية في البرازيل، بهذا المعنى يجب النّظر إلى سياسة ممارسة الاختفاء على أنها خلاصة لفاشية أمريكا اللاتينية، ولا تدع "فينومينولوجيا الاختفاء السياسي" التي جسدها كوسينسكي لنا مجالًا للشك في هذا الأمر.

مارسيو سيليكمان سيلفا - ناقد برازيلي

مكتبة
t.me/soramnqraa

برناردو كوسينسكي

# مؤتمر المختفين

9 789921 808445

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com